



تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطئ)

أستاذة اللغة العربية وآدابها

بجامعة عين شمس

دار الهلال

مقدمة

بقلم: الأستاذ أمين الخولى

ينظر القارىء فيما كتب مؤرخو التاريخ الاسلامى ، كالطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وغيرهم ، فتلفته ظاهرتان تسترعيان الانتباه ، وهما :

أولا : ان ما كتبه أولئك المؤرخون كانت توجهه الاعتبارات السياسية ، فهم انما يؤرخون فى الحياة الاسلامية للخلفاء ، والولاة ، والحكام ، والقادة ، والفتوح ، والمعارك ، وما الى ذلك من أخبار الساسة المدبرين للشئون العامة ، متجاهلين فى نفس الوقت حياة الشعوب الاجتماعية

فكان التاريخ عندهم هو تاريخ حكام الشعوب ، لا تاريخ الشعوب نفسها ، ومن ثم لم نظفر الا بالنزر اليسير من تاريخ النشاط الحيوى لهذه المجتمعات فى غير المجال السياسى والحكومى ، بل لم يقع ذلك الا عرضا فى أخبار الحكام والمسيطرين ، أو حواشيهم ومن يرد ذكرهم من الطبقة التى حولهم

فاذا أردنا أن نلتمس شيئا من أخبار النشاط الحيوى ، فيما عدا المجال السياسى الذى أشرنا اليه ، فليس أمامنا الا أن نلتمسها منثورة مبددة هنا وهناك ، فى مثل كتب الطبقات التى وضعها أولئك الأقدمون للفئات المختلفة ، من محدثين ، ومفسرين ، وفقهاء ، ونحاة ، وأطباء ... وغيرهم ، مما نستطيع بعد الجهد الجهيد أن نستخرج منها ما يؤرخ النشاط الاسلامى فى صورته الاجتماعية ، ومجالاته المختلفة ، ومع ذلك

لن نظفر من ذلك بالبين الوافى ... لأسباب أخرى لا محل هنا للتعرض لها ..

ثانيا : يلاحظ على هذه الكتب التاريخية القديمة انها ـ بصفة عامة ـ تحوى من تاريخ الحياة الاسلامية أخبارا مجردة ، وحوادث مسرودة ، كان أولئك المؤرخون ـ أول العهد ـ يصدرونها بسلسلة من أسماء الرواة ، يعدونها أسانيد لما يليها من متون تلك الأخبار والأحداث ..

على ان هؤلاء المؤرخين لم يلبثوا أن جردوا مروياتهم من الأسانيد أو سردها بدونها ، مرسلة ..

وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل هـذا السرد القديم هو التاريخ ؟ .. وهل يعطى لقب المؤرخ ـ اليوم ـ من يجمع مثل هذه الأخبار فيقصها أو يسردها بسند أو بغير سند ؟ ..

لعل هذين السؤالين يبدوان غريبين على من لم يلفته ما صار اليه الأمر اليوم من مستوى عال للثقافة الانسانية . وان هذا المستوى قد جاوز الدور الذى كان فيه التاريخ قصا ، وسردا ..

ان التاريخ ـ اليوم ـ هو وصف لسير الحياة بالناس ، يبين السنن الاجتماعية فى حياتهم ، والنواميس التى تحكم وجود مجتمعاتهم وأفرادهم فى هذه الجماعات ، وأصناف نشاطهم فيها

والتاريخ ـ اليوم ـ درس دقيق ينفذ الى ما وراء الأحداث المسرودة ، وما خلف الأخبار المروية ، ليستشف العوامل التى تسيرها والمؤثرات التى تتحكم فيها

والتاريخ لذلك لا يتلقى الأخبار فى استسلام ، ولا يتقبل المرويات فى تساهل ، بل يفحص ذلك كله ، ويختبره ، وينقده

ثم هو بعد ذلك يربط بين السابق منها واللاحق ، ليرد المسبب الى سببه ، ويتبين المقدمة التى أدت الى النتيجة ، ويهتدى فى ذلك بما عرف البحث الأصيل من حال الاجتماع البشرى ، والسنن المقررة لحيـاة المجتمعات الانسانية

واذا كان هذا هو شأن التاريخ اليوم ، فان القارىء يدرك اذن فى وضوح ، ان الأخبار التى حفظتها تلك المؤلفات أو الموسوعات الأولى ، ليست هى التاريخ ، وانما هى مادة التاريخ وخامات دراساته التى أشرنا الى وصفها اجمالا

وتاريخ الحياة الاسلامية يحتاج منا الى هذا العمل الجليل والنشاط الفسيح ، ولعل أجيالا منا تتمه على وجهه الصحيح

***

وهذا الكتاب حلقة من سلسلة عن شخصيات نسوية فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام ، تكتبها سيدة ، ولهذه السلسلة صلة وأثر فى تاريخ الحياة الاسلامية من نواح متعددة على ما أرجو وآمل

لها هذا الأثر بموضوعها المختار ، وبالمؤلفة صاحبة الاختيار ، ولها هذا الأثر بمنهجها الذى تسلكه فى اخراجها ، ولها هذا الأثر على حياة التاريخ بأسلوب أدائها (١)

***

والى القارىء كلمات قصار ، فى بيان هذه الآثار على تاريخ الحياة الاسلامية . فأما موضوع السلسلة التى منها هذا الكتاب فهو حياة سيدات فى تاريخنا ، يجلن فى غير المجال السياسى الذى عنى الأولون بأخبار حركاته الظاهرة دون المؤثرات المستترة ، مهما تكن قوية

والمرأة كما نعرف من أقوى تلك المؤثرات أو أقواها ، فهى — كما قيل — تهز المهد بيمينها وتهز العالم بيسارها ، وهى التى قيل عنها : « فتش عن المرأة » وما هذا التعرض للشخصيات النسوية الا التفتيش عنها باعتبارها عاملا فعالا فى سير الحياة ، وفهم الأحداث وتصور شخصيات الرجال

واذا اختارت احداهن هذا الموضوع النسوى فالمرجو أن تستشف من أسرار أرواحهن ما لا يستشف غيرها ... فالأنثى أفهم للأنثى

(١) صدر عن هذه السلسلة ، كتب : أم النبى ، ونساء النبى ، وبنات النبى ، وبطلة كربلاء ؛ نشرتها دار الهلال ، وترجم أكثرها الى اللغات الفارسية ، والاردية ، والاندونيسية

هذه ناحية التأثير بالموضوع المختار ، ومن اختارته .. وهو تأثير كبير على فهم مجرى الحوادث ، وشخصيات أبطالها

وأما أثرها بالمنهج الذى تتبعه ، ففيما يجب من نقد المرويات المتفرقة عن هذه الشخصيات نقدا يكشف عن صحتها والاستنتاج منها ، أو يبين انها أسطوريات لها دلالتها الاجتماعية على أنفس مخترعيها — وهو النقد الذى يتقدم الدرس التاريخى ..

وأما أثرها بأسلوب الأداء فى اخراجها ، فلأنها تختار أسلوب العرض الأدبى ، المتحرر من جفاف الأداء المنطقى ، المسامت لآفاق العرض فى القضية التاريخية . وفى هذا اللون من العرض يكمل الكاتب الحادث التاريخى بما يستلهم من نفسية صاحب الحادث ، وجو الحادثة ، وروح البيئة ، ومألوف النفس الانسانية ، وسنة الاجتماع البشرى . ولا يكون ذلك الا بعد تمثل تام للبيئة ، والمعيشة مع أشخاص الحادث ، والتمرس بتجارب نفسية مما عانى أصحابها ، والبصر بنظام المجتمع الانسانى الذى ينتظمهم

وفى كل أولئك فرص للتحليل ، الذى يسعف على تعليل الحوادث والانطلاق الى نتائجها وأهدافها

وهو ما نرجو أن يكون فى هذا الكتاب ، وسائر حلقات السلسلة شىء منه ، فتكون خطوة أو خطوات فى ميدان الدرس التاريخى المحدث الذى يحتاج اليه تاريخ الحياة الاسلامية ، ولما يتم منه شىء كثير

* * *

وبعد ..

فان صاحبة هذا الكتاب ، ربيبة مدرسة أدبية أنا أنتمى اليها .. ثم هى ربة بيت أنا آوى اليه .. وفى بعض هذا ما يؤثر على التقدير ، ويهز سلامة الحكم .. ومن أجل ذلك أستغفر الحق والانصاف ، بين يدى القارىء الكريم ، من شىء يكون قد غلب فيه القلم على أمره ... وقد بلغت اذ نبهته الى منشئه .

الفصل الأول

في بيت النبوة

- وافد غريب
- اللقاء الأول
- في بدء الطريق
- طفولة مرحة
- في دوامة الأحداث
- مذبحة كربلاء

وافد غريب

أخذ أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » مكانه فى المجلس ، والى جانبه صهر الرسول وابن عمه « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ، وولداه الحسن والحسين . ابنا الزهراء وسبطا الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن حولهم جلس نفر من أئمة الصحابة وأعلام المسلمين ، يتحدثون فيما أفاء الله على الاسلام من نصر ، وما أدال لهم من سلطان . وبينا هم فى ذلك لمجلس ، استأذن وافد غريب فأذن له أمير المؤمنين ، وما فى المجلس يومئذ من كان قد رآه من قبل رأى العين . على انه ما كان يظهر بالباب ، حتى تعلقت به الأبصار ، وهو يتخطى رقاب الناس الى الخليفة ، ليقدم اليه التحية

وأمسك القوم عن الحديث ، وبودهم لو يعرفون من يكون هذا الرجل الذى تبدو عليه سمات الشرف والسؤدد ، وقد تولى عنهم الخليفة هذا الأمر ، فسأل زائره : من يكون ؟ ..

فأجاب الوافد فى تؤدة ورزانة :

ــ امرؤ القيس بن عدى بن أوس

وحينذاك عرف القوم فيه سيد بنى كلب ، وكان لايزال على نصرانيته . فقال قائل منهم :

ــ يا أمير المؤمنين ، هذا صاحب بكر بن وائل الذى أغار عليهم فى الجاهلية يوم فلج

وتحدث « عمر » الى ضيفه مليا ، وملء خاطره سؤال واحد : أيكرمه الله بأن يدخل « امرؤ القيس بن عدى » الاسلام على يديه ؟ ..

وأسلم سيد بنى كلب

واذ ذاك لم يتردد أمير المؤمنين فى أن يعقد له اللواء على من أسلم من قضاعة بالشام (١)

ودعا « عمر » برمح ، وقلده اياه ..

هكذا فى أول لقاء ، وليس للرجل سابقة فى الاسلام !

أو كما قال « عوف بن خارجة المرى » ــ وكان يومئــذ بالمجلس :

« فوالله ما رأيت رجلا لم يصلّ لله ركعة قط ، أُمِّر على جماعة من المسلمين قبل امرىء القيس ! » (٢)

أجل ، ولكنه عمر الفاروق ، ذو البصر بالرجال ..

***

ونهض الرجل لينصرف ، فحيا الخليفة بتحية الاسلام ، وأخذ طريقه واللواء يهتز فوق رأسه ، والأنظار تتبعه حتى جاوز مجلس أمير المؤمنين منصرفا ...

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ــ ٤٢٧ ط الذخائر

(٢) الاغانى : ١٥٧/١٤ ساسى

اللقــاء الأول

ثم ما راع القوم الا أن رأوا « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ،
نأذن هو الآخر ، ثم يسرع وولداه معه ، فى أثر الوافد الذى خرج
يكا يحمل لواء بنى قضاعة بالشام !

وحث « على » خطاه حتى أدرك امرأ القيس ، فاستوقفه محييا ، ثم
.م اليه يقول :

ــ آنا على بن أبى طالب ، ابن عم الرســول صلى الله عليه وسلم
ىهره ، وهذان ــ وأشار الى الحسن والحسين ــ ابناى من بنته الزهراء .

فأقبل امرؤ القيس عليهم بكل وجهه ، وراح يملأ عينيه من آل النبى
ى لم يكتب له شرف صحبته ونعمة رؤيته ، والذى آمن برسالته
. لحظات

واستطرد « على » رضى الله عنه قائلا :

ــ وقد رغبنا فى صهرك فأنكحنا !

فما تلبث امرؤ القيس أن قال :

ــ مرحبــا بكم آل بيت النبى : قــد أنكحتك يا على ، ابنتى
المحياة » (١)

ثم أقبل على سبطى الرسول وهو يضيف :

ــ وأنكحتك ياحسن ، « سلمى بنت امرىء القيس » ، وانكحتك
سين « الرباب بنت امرىء القيس »

وانصرف بعد حين الى الشام ، وترك من ورائه دويا !

فلا حديث للناس يومئذ الا عن هذا الرجل الذى لقى أمير المؤمنين

---

١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ٩٠/٥ ط مصر

عمر لأول مرة ــ وهو ما يعرفه ــ فخرج من حضرته بلواء من أسلم من بنى قضاعة بالشام ، هو الذى لم يكن قد صلى لله ركعة قط ، كما قال « عوف المرى » !

ولقى صهر الرسول وابن عمه ، فخرج من أول مقابلة لهما ، وقد أخطبه احدى بناته الثلاث ، وظفر بالحسن والحسين ــ سبطى الرسول وزين شباب بنى هاشم ــ خطيبين لبنتيه الأخريين : سلمى والرباب (١)

***

كان « الحسين » يوم خطبت له « الرباب » فى ريق شبابه ، يستقبل ربيعه الثامن عشر ، ملء العيون والقلوب فتوة ومهابة وجلالا ، يرى فيه المسلمون صورة نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام ، ويجدون فيه نفحة عطرة من أثره ، وشعاعا بهيا من سناه ، حتى لقد بلغ من اعجابهم به ان ذاعت فيهم ذائعة تقول : انه معوذ بتعويذتين ، حشوهما زغب جناح جبريل !

أما « الرباب » فكانت ما تزال صبية غضة الصبا طرية العود ، مليحة وضيئة ، ذكية الملامح ، مرهفة الحس ، بادية الاعتزاز بشخصيتها وأبيها . وقد أرضاها بلا ريب ، أن يتصل سببها بنبى العرب ، وأن تدخل أشرف بيت فى قريش ، زوجة للحسين غذىّ النبوة

لكن صغر سنها حال دون التعجيل بالزواج ، فبقيت فى بيت أبيها تتهيأ لدخول دنياها الجديدة ، وتستعد لتملأ ذلك المكان الرفيع الذى حباها به القدر ..

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ــ ص ٤٢٧ ذخائر

في بدء الطريق

جدّت أحداث عقب ذلك أجلت زواج على وابنيه من بنات امرىء القيس بضع سنين

أحداث جسام ، شغل بها البيت النبوى ، كما شغل بها العالم الاسلامى الذى اتسع بالفتوح التاريخية الكبرى ، فبسط لواء الاسلام على ممالك الفرس والروم ، وورث عروش الأكاسرة والقياصرة والفراعين

فمنذ طعن أمير المؤمنين عمر بخنجر أبى لؤلؤة المجوسى ، لأربع ليال بقين من ذى الحجة عام ٢٣ هـ ، ونبارات المأساة ــ التى سوف تتمخض عنها الأحداث ــ تتدافع من هنا ومن هناك ، ماضية فى بطء ولكن فى عنف وشراسة ، الى مركز التجمع ومسرح المأساة

منذ قتل عمر ، وصرفت الخلافة ــ لثالث مرة ــ عن على بن أبى طالب ، وسحب الفتنة الغاشمة تلوح على الأفق ، منذرة بالعاصفة

فما رضى بنو هاشم قط ، أن تغدو الخلافة مرعى خصبا مستباحا لعصبة بنى أمية بن عبد شمس ، وأن يلمحوا أيديهم ــ فى خلافة عثمان رضه ــ وهى تتصيد أزمّة الأمر العظيم ، فى مهارة وتصميم ، وتلوى بها الى قبضة زعيمهم معاوية ، ابن آكلة الأكباد

ولا رضى الصحابة قط ، أن يتحكم فيهم ولاة انحرفوا عن مبادىء الاسلام وسيرة الرسول ، وأقبلوا يستكثرون من الأموال ويعيشون عيشة البذخ والترف ، وقد تجسمت أطماعهم واستشرت ذاتيتهم وهم بمأمن من غضب الخليفة ، بل فى طمأنينة الى لينه وتسامحه

ولا هان على وجوه المسلمين . أن تقوم فيهم ارستقراطية منتطة ، باذخة مغرقة ، أو كما قال « مالك الأشتر » لسعيد بن العاص الأموى ،

والى الكوفة لعثمان :

« أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا ، بستانا لك ولقومك ؟ .. والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا الا أن يكون كأحدنا » (١)

وكان « عثمان » قد ولى سعيد بن العاص الكوفة ، بعد أن عزل « الوليد بن عقبة » فحزن الناس .. وتفجع عليه الأحرار والمماليك ، وسمعت الولائد يقلن ، وعليهن الحداد :

يا ويلتنا قد عزل الوليد وجاءنا مجوّعا سعيد (٢)

***

وطالت المغالبة ...

وخرج « الحسين وأخوه الحسن » ، فى الجيش الزاحف الى افريقية ، بقيادة « عبد الله بن سعد بن أبى سرح » عام ٢٧ هـ ، فى عشرة آلاف من قريش والأنصار والمهاجرين

وأقام هنالك فى غزوته ، عاما وبعض عام ، ثم عاد الى المدينة منصورا ، فاحتفل البيت الهاشمى بزواجه من « الرباب بنت امرىء القيس » احتفالا بسيطا متواضعا ، وما تزال السحب متراكمة على الأفق ، وما يزال بنو أمية هناك فى الشام ، وفى غيرها من الأمصار ، يعدون للغد عدته ..

وأثمر الزواج ثمرته المباركة ، فوضعت « الرباب » ولدها عبد الله ابن الحسين (٣)

وشغلت الأم بحضانة وليدها ...

على حين عاد تيار الأحداث فجذب أبا عبد الله الى صميم المعترك ...

وكانت المدينة اذ ذاك قد ازدحمت بوفود الأنصار من شتى الأقاليم ، جاءوا يشكون انحراف الولاة واثرتهم وبغيهم ، والخليفة مغض ، والمغالبة بين الأحزاب تأخذ شكلا رهيبا وقويا شرسا ، والمرجل يهدر ويغلى

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥/٥٠ ، ٨٨ وأنظر معه حديث أبى ذر الغفارى فى الشام : ٥/٦٦

(٢) تاريخ الطبرى : ٥/٦٢

والاستيعاب فى معرفة الاصحاب ٢/٦٢٣ ط نهضة مصر

(٣) المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى : نسب قريش

ويلتمس الانفجار

وقتل أمير المؤمنين ، ذو النورين « عثمان » بسيوف الثائرين ، عصر يوم جمعة ، من الثامن عشر من ذى الحجة عام ٣٥ هـ (١)

وشبت الفتنة عاصفة هوجاء ...

وبويع أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » ليمضى خمس سنين ، فى معارك متصلة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، فما يكاد رضى الله عنه يفرغ من احداها ، الا ليخوض غمار فتنة أخرى على كره منه

الى أن غص بمرارة النصر كما لم يغص سواه بمرارة الهزيمة . وكان والحسن والحسين » أبدا الى جانبه ، يجرعان واياه غصص النصر فى حرب الفتنة الشوهاء التى راحت تمزق المسلمين بددا ، وتشطرهم طرائق قددا

والأمويون يزدادون على الهزيمة ، اصرارا على أن يثأروا من بنى هاشم ، ذلك الثأر الذى ظلوا يتوارثونه أبا عن جد ، منذ انعقدت زعامة قريش فى الجاهلية لبنى هاشم دون بنى عبد شمس ، وتأيدت باصطفاء نبى الاسلام منهم ، فمتى يبلغون مثلها كما قال قائلهم ؟

ـــ الا تكن نبوة ، فخلافة !

وقد عاش « أبو سفيان » حربا على النبى الهاشمى ، فلم يسلم الا مكرها يوم فتح مكة ، بعد معارك طاحنة امتدت ثمانى سنين وصالا ...

وبقى ما عاش يرنو الى الأمر من بعيد ، بعد أن رأى انصراف الخلافة عن بيت النبى وبنى هاشم ، ورأى الولاة من بنى أميـــة يغلبون على الأمصار ، حتى لقد وقف يوما على قبر الشهيد « حمزة » صريع وحشى ـ عبد هند ـ فقال :

ـــ رحمك الله أبا عمارة ، لقد قاتلتنا على أمر صار الينا !

ومات « أبو سفيان » ، وترك لابنه ذلك العهد البغيض ...

وهذا هو « معاوية » يمضى فى سبيل انفاذه ، وما يرتاب انه صائر اليه حتما ، مهما يطل الطريق ، وتلتو السبل !

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٤٥/٥

وكان الطريق يبدو طويلا ، وكأن لا نهاية له ...

فما كان لمعاوية أن يطمع فى هزيمة خصمه البطل الذى لا يغلب « على ابن أبى طالب »

ولا كانت أمانيه لتجرؤ على أن يحلم بانتزاع الأمر ، من الامام البطل ، ما دام حيا ! فهل تمهله المنية ، الى ما بعد وفاة أمير المؤمنين على ؟

أو يسبقه هو الى الرحيل ، ويدع الأمر بينه وبين بنى هاشم ميراثا لولده « يزيد » ، كما تلقاه هو ميراثا عن أبيه « أبى سفيـــان » وأمه « هند بنت عتبة » ؟

وأجابت الأيام عن سؤاله !

لقد تولى « الخوارج » — عن غير عمد — تمهيد الأمر لمعاوية !

أردوا أمرا ، وأراد الله غيره فكان ما أراد الله !

كانوا قد بدأوا يتمردون على أمير المؤمنين ، منذ قبل خدعة « التحكيم » وهو الظافر المنتصر

وأنكر منهم هـــذا التمرد ، والتقى بهم فى معركة النهر التى كلفتهم غاليا ، وجرعته مزيدا من مرارة النصر

وتآمروا فيما بينهم ، أن يريحوا المسلمين من ابطال التحكيم الثلاثة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، وعلى

قال ابن ملجم : أنا أكفيكم على بن أبى طالب

وقال ثان منهم : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان

وقال ثالث : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص

وتعاهدوا وتواثقوا بالله : لا ينكص رجل منهم عن صـــاحبه الذى توجه اليه ، حتى يقتله أو يموت دونه

وضربوا لهم موعدا ، لســـبع عشرة ليلة تخلو من رمضـــان ، عام ٤٠ هـ (١)

وقتل الامام على بسيف ابن ملجم ...

ونجا معاوية وعمرو

وأصبح معاوية ، غداة يوم ١٨ رمضان سنة ٤٠ هـ ، والأمر منه قاب قوسين أو أدنى !

لقد بويع « الحسن بن على » اثر مصرع أبيه ، لكن « معاوية » اعتصم بمعقله فى الشام وأخذ البيعة لنفسه

ولم يطل بهما الخلاف ، فان « الحسن بن على » لم يلبث — فى أول سنة ٤١ هـ — أن تنازل عن الأمر لمعاوية بشروط خاصة (٢) حقنا لدماء المسلمين ، وارتيابا فى ولاء العراق ، ولكى يضع حدا لتلك الفتنة التى خضبت ساحة العالم الاسلامى الكبير ، بدماء القتلى والشهداء

وبايع « الحسين » معاوية ، حتى لا تكون فتنة

وأدى فريضة الجهاد ، فاشترك فى غزو القسطنطينية عام ٤٩ هـ وأبلى فيها خير بلاء

ومن قبل اشترك فى فتح افريقيه وغزو طبرستان ...

وعاد فلزم « المدينة » ، يجلس فى مسجد جده الرسول عليه الصلاة والسلام ، يروى الحديث ، ويشتغل بأمور الدين « فيتحلق من حوله المسلمون وتهوى اليه أفئدتهم ، ويجدون فيه نفحات من نبيهم عليه الصلاة والسلام ، ويلتمسون لديه الخلاص ساعات من نوازع المادة ، وأسر الشهوات »

رآه « عبد الله بن عمر » ذات يوم مقبلا ، فهتف : « هذا أحب أهل الأرض الى أهل السماء اليوم »

ومعاوية — فى دمشق — يمد بصره الى هذا المجلس على بعد ما بينهما ، ويحوم بفكره حوله ، حتى ليقول لرجل من حزبه استأذنه فى السفر الى الحجاز :

« اذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة ، فيها قوم كأن على رءوسهم الطير . فتلك حلقة أبى عبد الله الحسين ، مؤتزرا الى انصاف ساقيه »

---

(١) تاريخ الطبرى ٨٣/٦

(٢) تاريخ الطبرى : ٩٣/٦ وأنظر نص وثيقة الصلح وتحليلها فى كتاب « صلح الحسن » للسيد الشيخ راضى ال ياسين : ٢٥٢ ط بغداد ١٩٥٣

طفولـــة مرحة

فى تلك الأيام ، كانت « آمنة بنت الحســـين » (١) تحبو فى رحاب البيت النبوى ، طفلة حلوة الملامح ، ذكية النظرة ، مرحة الطبع ، آسرة اللفتات والبسمات

ولم يحدد لنا التاريخ عام ولادتها ، بل لا أعرف أحدا من كتاب السير الذين نقلوا الينا أخبارها ، قد التفت الى تاريخ مولدها أو أشار اليه . وكنا بحيث نمر بهذا الصمت غير مبالين ، لو أن الأمر ليس بذى أهمية ، لكنا سنرى هذه الطفلة عندما شبت ، تشغل فى المجتمع القرشى مكان السيدة الأولى فى عصرها ، وسوف تشغل هذا المجتمع ـــ ورواة الأخبار على مر العصور ـــ بما اشتهرت به من حسن وملاحة ، وبحياتها الزوجية الحافلة . ولن نستطيع أن نتمثل هـــذه الحيـــاة الخصبة الحافلة للحسناء الهاشمية ، اذا لم نعرف تاريخ مولدها ، ان لم يكن على وجه التحديد ، فعلى وجه التقريب المستطاع . وموضوع حاجتنا الى هذا ، ان تاريخ المولد ، هو الذى يحدد لنا عمر « بنت الحســـين » فى مختلف مراحل حياتها التى لم يعرف زمنها حياة أحفل منها ، واذا أمكن أن نتجاهل مسألة السن فى حيـــاة رجل ، فليس من الهين أن نفعل ذلك مع أنثى ، وبخاصة اذا كانت هذه الأنثى ، هى « آمنة ، سكينة بنت الحسين » !..

وحين نحاول أن نلتمس من أخبـــارها ، ما يعين على تقدير تاريخ مولدها ، نجد ـــ أول ما نجد ـــ ذلك الخبر الذى يشير الى وفاتها وهى فى نحو السبعين من عمرها

ولا خلاف بين كتاب السير ، فى وفاتها عام ١١٧ هـ . ذكر ذلك « ابن خلكان » فى وفيات الأعيان (١/٢٩٨) و « الطبرى » فى تاريخه (سنة

---

(١) سميت باسم جدة أمها الزهراء : آمنة بنت وهب ، أم الرسول صلى الله عليه وسلم . وسكينة لقب لها ، وبه اشتهرت . انظر الاغانى ١٤/١٥٧ ساسى

١١٧ هـ) و « الذهبى » فى الشذرات (حوادث سنة ١١٧) وذكرته المصادر الشيعية فى (مقتل الحسين : ٣٦٨) للسيد عبد الرزاق الموسوى ، ودائرة المعارف الاسلامية (مادة : سكينة) ولا نعلم أنهم اختلفوا فى هذا التاريخ

فالقول بوفاتها وهى فى نحو السبعين من عمرها ، يجعل مولدها فى حوالى عام ٤٧ هـ ، بعد سبع سنوات من مقتل جدها الامام « على » كرم الله وجهه ، وانتقال الخلافة الى « معاوية » كبير البيت الأموى

فاذا أضفنا الى هذا ، ما ذكره رواة سيرتها ، من أن ابن عمها « الحسن » ، تقدم الى عمه « الامام الحسين » يطلب أن يزوجه احدى ابنتيه : فاطمة أو سكينة فزوجه الامام أولاهما (١) ، كان مقتضى هذا ان « سكينة » أدركت سن الزواج فى حياة أبيها رضى الله عنه ، وهو ما يؤيد الاستنتاج الأول الذى يبلغ بسنها أربعة عشر ربيعا ، عندما استشهد أبوها الامام فى كربلاء ، فى شهر المحرم سنة ٦١ هـ

فلنا أن نطمئن اذن الى أن ولادتها كانت حوالى سنة ٤٧ هـ . وقد سميت باسم جدتها أم النبى ، ثم لقبتها أمها « الرباب » ، «بسكينة» ، ولعلها لحظت أن نفوس آلها الأكرمين كانت تسكن اليها لفرط مرحها واشراقها

وقد استقبل البيت الهاشمى قبلها مولد أخيها الشقيق « عبد الله بن الحسين » الذى استشهد مع أبيه رضى الله عنه

وكانت « سكينة » فى طفولتها الحلوة اللاهية ، خلية البال من تلك الهموم الكبار التى كانت تشغل آلها وتلقى على الأفق من حولها ظلالا من الأسى ، منذ رزئوا ورزىء الاسلام بمصرع أمير المؤمنين « الامام على » ، قبل مولد « سكينة » بنحو سبعة أعوام ، ثم بموت عمها « الامام الحسن » سنة ٥٠ هـ (٢) ، و « سكينة » فى نحو الثالثة من

---

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش — ٥٧
والاغانى : ١٥٨/١٤ ط الساسى
(٢) تاريخ الطبرى : حوادث سنة ٥٠ هـ
ونسب قريش : ص ٤٠ وصلح الحسن : ٣٦١

عمرها ، فنأى بها صغر السن عن عمق الاحساس بالفاجعة المزدوجة التى ألمت بالبيت الكريم

والاخباريون يروون من أخبار « سكينة » فى طفولتها المرحة ، ما يؤكد انها كانت مبعث انس لآلها الكرام ، ولأبيها « الحسين » بوجه خاص ، يسكن الى مرحها وظرفها فى تلك الظروف العصيبة التى كانت تئوده . ويبدو انه عوتب فى اهتمامه المفرط « بسكينة » ، واسرافه فى الانس اليها والى أمها « الرباب » ، فلم يصغ فيهما الى عتاب ، بل قال :

لعمـــــــــرى انني لأحب دارا
تضيفها « سكينة » ، و « الرباب »

أحبهمـــا وأبذل بعــــد مالى
وليس للائمى فيهـــا عتـــاب

ولست لهم وان عتبـوا مطيعـا
حيـاتى ، أو يغيبنى التراب (١)

والبيتان الأولان ، رواهما الأصبهانى فى « مقاتل الطالبيين ص ٩٠ » ، وجاءا فى « الأغانى ١٤/١٥٨ » هكذا :

لعمـــــــــرى انني لأحب دارا
تكون بها « سكينة » و « الرباب »

أحبهمــــا وأبـــذل كل مالى
وليس لعاتب عنـــدى عتـــاب

وفى خبر رواه صاحب الأغانى (٢) عن « مالك بن أعين » ، انه سمع « سكينة بنت الحسين » ، رضى الله عنهما ، تقول : عاتب عمى «الحسن» أبى فى أمى ، فقال هذه الأبيات . وان صح هذا الخبر ، كان فيه ما يدل على ان « الامام الحسين » بالغ فى الاهتمام بزوجه وطفلته ، الى حد لفت أخاه الكبير ودفعه الى التـدخل فى أخص شئون أخيه ، بالملامة والعتاب . ونحن قد اطمأننا الى أن « سكينة » ولدت حوالى سنة ٤٧ هـ .

(١) فى نسب قريش : ص ٥٩ * لعمرك اننى لاحب دارا *
(٢) ج ١٤/١٥٧ ساسى

وقد توفى عمها « الحسن » ، فى سنة ٥٠ هـ . و « سكينة » فى السنة الثالثة من عمرها . واذن فقد كانت منـــذ طفولتها ، مبعث أنس خاص لأبيها الامام الذى رأى أخاه ينزل عن الأمر « لمعاوية » ، ويبايعه أميرا للمؤمنين بعد كل الذى كان !

ترى هل كان « الحسين » فى اقبـــاله المسرف ، على « الرباب » ، و « سكينة » يريد أن يتشاغل عن نذر عاصفة أخرى بدأت تلوح له على الأفق البعيـــد ، وان ظن أخوه وظن كثـــير غيره ، ان تنـــازل « الحسن » قد وضع حدا للفتنة وعصم المسلمين من حرب هوجاء قاسية لا ترحم ! ؟ ..

ترى هل كان يفر الى طفلته ، هذه الذكية المرحة الحسناء ، من خاطر كان يئوده حين يخلو الى نفسه ، مؤكدا له أن تضحية « الامام الحسن » ، لن تذهب هدرا فحسب ، ولكنها زادت بنى أميـــة تشبثا بالأمر الذى استقر بين يدى « معاوية » وهيهات أن يتركوه يخرج من أيديهم مرة ثانية ، وهم الذين كافحوا فى سبيله نصف قرن أو يزيد ؟

فقد بايع « الحسين » نفسه « معاوية » ــ بعد صلحه مع « الحسن » ــ وماله ، رضى الله عنه ، فى الخلافة مطمع ، ولكنه لم يلبث أن أدرك ، أن الفتنة لم تهدأ الا الى حين ، فما كان « ابن هنـــد » بالذى يرضيه أن يتولى الخلافة زمنا يطول أو يقصر ، ثم يتركه ليعود الى البيت الهاشمى ، أعداء الأمويين من قديم الزمان !

ولو قد فعلها ، لباء بلعنة أبيه « سفيان » ، الذى قال للعصبة الأموية يوم تولى « عثمان » رضى الله عنه الخلافة :

ــ يابنى أميـــة ، تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به « أبو سفيان » ، ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن الى صبيانكم وراثة

لو فعلها ، لطارده صدى من صوت أمه « هند » ، تصيح : ثكلته أمه ان رضى بهذا ..

هيهات هيهات !.. فما انتزع « معاوية » الخلافة الا ليثبتها فى بيته ،

ويستخلصها لقومه من بنى أمية

ولكن كيف يجرؤ ، والعهد بينه وبين « الحسن » قائم ؟ (١)

ظل المسلمون فى ريب من هذا ، أما « الحسين » عليه السلام ، فما غاب عنه أن لذلك الأمر ما بعده ، وكلما أمعن النظر ، بدا له الليـــل طويلا .. لا نهاية له ولا آخر .. (٢)

وحاول مع ذلك ألا يسبق الأحداث ، وأعانه على هذا ، أن استغرقته العبادة وأمور الدين فاذا آب من المسجد الى بيته ، فثمة « سكينة » تملأ الأفق من حولها اشراقا وسنى ، وتكاد تنسيه ــ الى لحظات ــ ما يشغله من خواطر تسرى به الى ليل الهموم

حتى مات « الحسن » ...

وذاع انه مات مسموما بيد زوجتـــه « ابنة الأشعث » بتحريض من « معاوية » على أن يزوجها ولده « يزيد » ويعطيها مائة ألف درهم ، ففعلت ... وسوغها المال ولم يزوجها من ولده . (٣)

وتأهب « الحسين » لمعركته ضد هذا الجبروت الظالم الذى لا يلوى على شيء ..

ضد هذا الباطل الغاشم ، الذى لايرعى حرمة ولا عهدا ، ولا يخشى عاقبة ...

ضد هذه العصبة الباغية ، وقد خلا لها الجو الا من « أبى عبـــد الله الحسين »

***

ثم لم تك الا أعوام معدودات ، حتى أمسك التاريخ أنفاسه ووقف يرقب « معاوية » وهو يجلس فى قصر الخلافة بدمشق ، ليأخـــذ البيعة علنا لابنه « يزيد » سنة ٥٦ هـ ، بعد أن مهد لها طويلا (٤) ، فلم ينتر

---

(١) انظر الرسائل بين الحسن ومعاوية فى (مقاتل الطالبيين : ص ٥٥ ومابعدها)
وانظر نص العهد فى « صلح الحسن » ص ٢٥٢ وما بعدها

(٢) تاريخ الطبرى : ٩٢/٦
وانظر مروج الذهب للمسعودى : ٢٣٠/٢

(٣) مقاتل الطالبيين ص ٧٣ ــ وفيه أن ابنة الاشعث تزوجت رجلا من آل طلحة ، وولدت له أبناء عيروا بأنهم بنو مسمة الازواج . وانظر « صلح الحسن : ٣٦١ »

(٤) تاريخ الطبرى : ١٦٩/٦

دقيقة واحدة عن السعى لها منذ تم له النصر الحاسم بصلح « الحسن » ، ثم بموته بعد عشر سنوات من استقرار الأمر « لمعاوية »

وعشر سنوات ليست قليلة ، اذا حسبناها بالدقائق ، وما نام «معاوية» دقيقة عن هدفه

ولكن وجود « الحسين » جعله يحتاج الى ست سنوات أخرى من كفاح دائب عنيد

وكانت بين يديه خزائن المال يشترى بها من شاء

فمن عصى على المال اشتراه بالدهاء والمكر والملاينة

ووكل الباقين الى الخوف من هيبة السلطان وجبروت الحاكم

نقل « المبرد » فى الكامل : ان « معاوية لما نصب « يزيد » لولاية العهد ، أقعده فى قبة حمراء ، فجعل الناس يسلمون على « معاوية » ثم يميلون الى « يزيد » ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع الى «معاوية» فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، اعلم انك لو لم تولّ هـــذا ـــ وأشـــار الى « يزيد » ـــ أمور الناس لأضعتها

« وكان « الأحنف بن قيس » جالسا ، فقال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ .. فقال « الأحنف » : أخاف الله ان كذبت ، وأخافكم ان صدقت . فقال معاوية : جزاك الله عن الطاعة خيرا . وأمر له بألوف

« فلمـــا خرج الأحنف ، لقيه الرجـــل بالباب فقال : يا أبا بحر ، انى لأعلم ان شر من خلق الله ، هذا وابنه !.. ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع فى استخراجها الا بما سمعت ! » (١)

اذن فقد فعلها

فعلها فى جرأة عاتية ، فجعل الخلافة فى بيته الأموى ملكا موروثا ، وهرقلية كلما ذهب هرقل جاء هرقل ...

وأخذ البيعة « ليزيد » ، أميرا للمؤمنين من بعده ؛ وانه لينزع بالوراثة

(١) رغبة الامل الكامل : ١/١٦٥ ـــ ط ١٩٢٧

الى جدته آكلة الأكباد ، ويزدهيه هذا الملك العريض الذى خلص لآل « أبى سفيان » ، ويذهب فى حياته مذهب الفتيـــان المترفين ، مجاهرا بالفسق معالنا بالمعصية !

ورنت القلوب ـــ كل القلوب ـــ الى « الحســين بن على » ســبط الرسول ، وغذى النبوة ، والمثل الكامل للرجولة والعظمــة والتقوى والايمان

وامتدت الأيدى ـــ كل الأيدى ـــ الى « معاوية » تبايعه على ولاية العهد « ليزيد » ، وهم أحد ثلاثة : رجل يعلم أن « يزيد » شر من خلق الله ، ولكن بيديه مفاتيح الخزائن وأقفال بيت المال

وثان يخاف الله ان كذب ، ويخاف « معاوية » ان صدق

وثالث حذر فطن ، قد يئس من خروج الأمر من الأمويين بعد أن صار اليهم ، فساير وداور

ولم يتخلف عن البيعة « ليزيد » الا خمسة من وجوه أهل المدينة : « الحسين بن على » ، و « عبد الله بن الزبير » ، و « عبد الرحمن بن أبى بكر » ، و « عبد الله بن عمر » ، و « عبد الله بن عباس » (١)

وتكتلت حول بيت الرسول ، معارضة قوية ، أنكرت ان تغدو الخلافة هرقلية ، وأن يئول أمر المؤمنين الى مثل « يزيد »

ولم يعد « عبد الله بن همام » الحق ، حين قال :

فان تأتوا « برملة » أو « بهند »
نبايعهـــا أمـــيرة مؤمنيـــنا
حشينا الغيظ حتى لو شربنـــا
دماء بنى أميـــة ما روينـــا
لقـد ضـاعت رعيتـكم وأنتـم
تصيـدون الأرانب غافلينـا ! . .

وأغضى « معاوية » عن ذلك النفر الخمسة ، الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، بقدر ما أسرف فى التنكيل بمن شايعهم علنا . وبلغ به الأمر أن قتل

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٠/٦

« حجر بن عدى » وستة من أصحابه ، لأنهم أنكروا أن يسب الامام « على » على منبر الكوفة ! (١) وحين غضب عابد قريش « محمد بن أبى بكر » لهذا المنكر ، وكتب الى «معاوية» يذكره بفضل الامام «على» وقديم سوابقه ، رد عليه يقول :

« قد كنا وأبوك فينا ، نعرف فضل « ابن أبى طالب » وحقه لازما لنا مبرورا علينا ، ثم كان أبوك ، و « عمر » ، أول من ابتزه حقه وخالفه على أمره .. فان يك ما نحن عليه صوابا فأبوك استبد به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا « ابن أبى طالب » ولسلمنا اليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله .. فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك ، والسلام على من أناب » (٢)

***

أين كانت « سكينة » من هذا كله ؟ ..

كانت هناك دائما الى جانب أبيها ، تتبعه خواطرها وقلبها اذا غاب عنها ، فاذا آب الى بيته كانت هى أسرع أهله اليه وأقدرهم على ايناسه ، فما يكاد يلمح ابتسامتها الوضيئة حتى يسكن اليها ويندمج لحظات فى جوها المرح وعالمها الظريف

وكانت فى ذلك الوقت ، قد جاوزت مرحلة الطفولة وشارفت مطلع الشباب ، فما عادت بحيث يغيب عنها الذى يعانيه أبوها من هموم كبار ، لكنها كانت قادرة على أن تطوى همومها ساعة تلقاه ، لعلها بذلك تنسيه بعض همومه

ولم تفتها صغيرة ولا كبيرة من أنباء ذلك الصراع المحتدم بين حق أبيها وباطل خصومه ، بل لقد شاركت فى هذه المعركة بكل وجدانها اليقظ وحسها المرهف ووعيها الذكى ، وان بدت خلية البال ، لا هم لها الا أن تملأ البيت بدعابتها المرحة ، والا أن تمنح أباها المناضل — الذى

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦/١٤١ — وفيه أن السيدة عائشة قالت لمعاوية بعد مقتل حجر : يامعاوية ، أين كان حلمك عن حجر ؟ فأجاب : يا أم المؤمنين ، لم يحضرنى رشيد
(٢) المسعودى : مروج الذهب : ٢/١٩٤

ما بات منذ وعى وأدرك ، الا على حق يذود عنه أو باطل يدفعه باليد واللسان والقلب ــ بعض أنس وراحة

وربما شهدتها الليالى ساهرة مسهدة تحاول عبثا أن تذود عن مضجعها أشباح الهم التى تؤرق منام أبيها ومنامها معه ، لكنها ماسمعت شاكية ، ولا رؤيت باكية ، بل تغدو مع مشرق الشمس ، ملء الاشراق والمرح ، حتى لقد بدا لبعض أهلها أن يسألها ذات مرة : « انك تمزحين كثيرا ، وأختك فاطمة لا تمزح ؟ » فأجابت من فورها : « لأنكم سميتموها باسم جدتنا المؤمنة ، وسميتمونى باسم جدتنا الأخرى » تعنى « فاطمة الزهراء » ، و « آمنة بنت وهب » (١)

وفى جوابها ما يدل على وعيها لما ألم بجدتها من أحزان ، وتمثلها اياها فى الأشهر الأخيرة من عمرها ، لا يرقأ لها دمع على أبيها العظيم ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى لحقت به .. (٢)

واذن فلم تكن بغافلة عن هموم آلها وأحزانهم ، ولكنها ما كانت نطيق أن تكتئب ، وهى تعلم أن أباها رضى الله عنه يلتمس لديها ما يعينه على احتمال عناء طال ، ولا تبدو له نهاية !

يلتمسه لديها وحدها ، فى حضن أمها « الرباب » مع أن بيت « الحسين » اذ ذاك كان يضم زوجات أخريات وأبناء أخر ..

***

وهنا ، نقف لحظة لنلقى نظرة على أفراد البيت الكريم ، الذى كانت « سكينة » مبعث الأنس فيه

فهناك ، كان « عبد الله بن الحسين » ، شقيق « سكينة » من أمها « الرباب بنت امرىء القيس بن عدى » (٣)

وكان هناك أخوها لأبيها ، « على » الأكبر ، ابن « الحسين » ، وأمه « ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى » ، وأمها « ميمونة

(١) الاغانى : ١٤/١٥٨ ساسى
(٢) انظر حديث الزهراء بعد وفاة أبيها الرسول ، فى كتابنا « بنات النبى » ص ٢٠٠ ومابعدها ط ٣ : دار الهلال ١٩٦٣
(٣) نسب قريش : ٥٩

بنت أبى سفيان بن حرب » ، وفيه قال « معاوية ؟ : « أولى الناس بهذا الأمر « على بن الحسين بن على » ، جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه شجاعة بنى هاشم ، وسخاء بنى أمية ، وزهو ثقيف » ! (١)

وكان هناك كذلك ، « على » الأصغر « زين العابدين » مع أمه « سلافة بنت يزدجرد » آخر ملوك فارس ، وقد سبيت مع أختين لها فى معركة فتح بلاد الفرس ، وجيء بهن الى « عمر » مع السبايا الأخريات ، فأمر رضى الله عنه ببيعهن جميعا ، لكن « الامام على » تدخل لاعفائهن من هذا الموقف الأليم ، وقال للخليفة : « ان بنات الملوك لايعاملن معاملة السوقة » ، فسأله « عمر » : « وماذا أفعل بهن ؟ » فأجاب : يقوّمن ، ومهما يبلغ ثمنهن يدفعه من يختارهن

وقومت بنات يزدجرد ، فأخذهن « على بن أبى طالب » ، واختار لهن خير ثلاثة من شباب قريش ، فكانت الأولى « للحسين بن على » ، وقد ولدت له « عليا » الأصغر

والثانية « لمحمد بن أبى بكر الصديق » ، فولدت له « القاسم »

والثالثة « لعبد الله بن عمر » ، فولدت له سالما !

فيقال ان أهل المدينة كانوا يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم « على بن الحسين » ، و « القاسم » ، و « سالم » ، ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس فى اتخاذ السرارى

وقد كان «على الأصغر» أكبر من أخته «سكينة» بنحو عشر سنوات ، اذ ولد رضى الله عنه سنة ٣٨ هـ (٢) فأدرك مقتل جده « الامام على » ، وعرف عنه — منذ صغره — العكوف على العبادة ، والزهد فى ملاذ الدنيا ، والانصراف عن اللهو ، مما أعده ليكون — بعد استشهاد أبيه وبقية أهل بيته فى كربلاء — من أشهر البكائين فى تاريخ الاسلام (٣)

وانما سمى « عليا » الأصغر ، تمييزا له عن أخيه « على » الأكبر ،

---

(١) الاصفهانى : مقاتل الطالبيين — ٨٠

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٤٥٥/١ بولاق وانظر معه (عيون الاخبار لابن قتيبة) ٨/٤ دار الكتب . وشذرات الذهب : ١٠٥/١ لابن العماد الحنبلى

(٣) ارجع الى كتاب « مقتل الحسين » ص ٤٥٠ : ٤٥٤

وأمه « ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى » ، أحد صحابة الرسول (١)

وأخ رابع « لسكينة » ، هو « جعفر بن الحسين ، وأمه من قبيلة بَلى (٢)

ثم كانت هناك أختها لأبيها : « فاطمة بنت الحسين » ، قيل انها كانت منقطعة النظير فى الجمال ، لكنها لم تكن مرحة كأختها « سكينة » ، ولعل ذلك راجع الى ظروف خاصة بها وبأمها « أم اسحق بنت طلحة بن عبيد الله التيمى » (٣)

فلقد كانت « أم اسحق » ، احدى بنات تيم اللواتى اشتهرن بالجفوة والخشونة فى معاملة الأزواج وفى « نسب قريش » انها تزوجت « الحسن ابن على بن أبى طالب ، فولدت له ابنه طلحة ، ثم تزوجت أبا عبد الله « الحسين » فولدت له فاطمة (٤) ، وليس فى مصادر سيرة بنى على ، ما يشير الى انفصال أم اسحاق عن الحسن ، هل كان بطلاق أو ترمل . لكنا نميل الى الظن بأنها طلقت منه ، لأن زواج بنتها فاطمة كان فى حياة أبيها « الحسين » وقد قتل رضى الله عنه فى المحرم من سنة ٦١ هـ ، ومن المستبعد أن يكون قد تزوج من أم « اسحاق » بعد موت أخيه الحسن عام ٥٠ هـ ، وولدت لهما فاطمة التى أدركت سن الزواج قبل عام ٦١ هـ ..

وأيا ما كان الأمر ، فتجربة الطلاق أو الترمل ، غير هينة على مثل « أم اسحاق » ولعلها زادتها جفوة وصرامة ، حتى ليقول « الحسين » رضى الله عنه فيها : « والله لربما حملت منى ووضعت وهى مصارمة لى ما تكلمنى ! »

وفى ظرف كهذا ولدت له ابنته « فاطمة » ، وفيها ميراث بنات تيم ،

---

(١) نسب قريش : ٥٧ — والاصابة : ١٧٤/٧ مصر
(٢) نسب قريش : ٥٩
(٣) نسب قريش : ٥٠
(٤) نسب قريش : ٥١
ومثله فى جمهرة أنساب العرب : ٣٤ ، ١٢٩

وأثر تلك الظروف القاســية ، فأعوزها ما كان « لسكينة » من مرح وبساطة وايناس

هؤلاء هم اخوة « سكينة » : « عبد الله » شقيقها ، و « على » الأكبر ، و « على » الأصغر ، و « جعفر » ، و « فاطمة »

ولم يفت القوم انه مُقِل ، اذ يروى أن رجلا قال لأحد بنى الحسين : ما أقلَّ ولد أبيك ؟ .. فكان جوابه : « العجب أن يكون له ولد ، وهو الذى ما رؤى الا عاكفا على العبادة والجهاد »

وقد كانت حياة « الحسين » كلها جهادا : مع النفس ، ومع الباطل أينما كان ..

وقد عاش بنوه الأربعة ، وبنتــاه « فاطمة » و « ســكينة » حتى بلغت معركته ذروتها الرهيبة ، ولكن « سكينة » هى التى استأثرت من دونهم جميعا ، بأنها كانت مبعث أنسه وراحته ..

لعمــــــرك اننى لأحب دارا
تكون بها «سكينة» و «الرباب»

فى دوامة الأحداث

من قريب ، وقفت « سكينة » ــ وقد جاوزت مرحلة الطفولة ــ ترقب الأحداث وهى تندفع نحو ذروتها المشئومة فى عنف شرس ، وترنو الى أبيها الحبيب ، فى صميم الدوامة ، يمضى الى المصرع الدامى ، دون أن يملك عنه حولا !

فمنذ أخذ « معاوية » العهد لابنه « يزيد » ، وغذى النبوة هو قطب الصراع ومحور الأحداث وهدف المعركة .. المعركة الطويلة العنيدة ، التى بدأت مرحلتها الأولى بين « أبى سفيان بن حرب » ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انتقلت الى صراع بين « معاوية بن أبى سفيان » ، و « على » صهر الرسول وابن عمه ، وهاهى ذى تنتقل ــ كأنها ميراث محتكم ــ الى دورها العنيف ، بين « يزيد بن معاوية » ، حفيد « أبى سفيان » و « هند » ، وبين « الحسين بن على » ، حفيد الرسول وولد « الزهراء » :

عبد شمس أضرمت لبنى ها
شم حربا يشيب منها الوليد
فابن حرب «للمصطفى» ، وابن «هند»
« لعلى » ، و « للحسين » « يزيد »

والتاريخ المروى لايذكر أن « يزيد » أخذ مكانه فى الصراع ، أيام أبيه « معاوية » ، ولكن الذى لاريب فيه انه لبث منذ بويع وليا للعهد سنة ٥٦ هـ ، الى وفاة « معاوية » سنة ٦٠ هـ ، يتدبر موقفه من « ابن الزهراء » ، ويستعد على مهل لمعركة عاتية تحسم هذا الموقف المعلق الذى ظل أكثر من نصف قرن ، حائرا مترددا ...

ما من شك، انه قدر أن الخلافة لن تصفو له، وفى النـاس هـذا « الحسين » الامام، يفرض سلطانه على كل القلوب، وكل الضمائر، ويغزو المجتمع الاسلامى، بجاذبيته الآسرة، وشخصيته التى يحف بها سنا — أى سنا — من نور النبوة، وجلال الايمان، وسـمو الخلق، ومهابة الحق، ووقار السمت، ونبل الطباع، واكتمال الرجولة والانسانية

حتى مات معاوية بعد أن وطأ الأمر لولده، ولم يعد يخاف عليه الا من بضعة نفر من قريش، أولهم « الحسين بن على » كما قال فى وصيته ليزيد (١)

وورثه « يزيد » . وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة، فى هلال رجب، سنة ٦٠ هـ

واذ ذاك، بدأ يقود المعركة فى قسوة ضارية وشراسة محمومة، فكتب الى عامله بالمدينة — الوليد بن عتبة — أن يأخذ له البيعة قسرا ممن تخلف عنها من وجوه المسلمين هناك (٢)

فبايعه « عبد الله بن عباس »

وبايعه « عبد الله بن عمر » (٣)

وفر « عبد الله بن الزبير » الى مكة، مستعيذا بالبيت العتيق (٤)، فى طمأنينة الواثق أن دوره لم يحن بعد !

وأبى « الحسين » أن يبايع، بل كان جوابه الوليد :

« يا أمير .. انا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، بنا فتح الله وبنا ختم. و « يزيد » فاسق فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، مجاهر بالفجور، ومثلى لا يبايع مثله، ولكن نصـبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أينا أحق بالبيعة والخلافة » (٥)

ومضى ...

---

(١) أنظر نص الوصية فى تاريخ الطبرى : ١٧٩/٦
(٢) انظر نص كتاب يزيد الى عامله الوليد، فى تاريخ الطبرى ١٨٨/٦
(٣) تاريخ الطبرى : ١٦٠/٦
(٤) تاريخ الطبرى ١٦٠/٦ ونسب قريش : ٢٣٩
(٥) السيد عبد الرزاق الموسوى : مقتل الحسين ص ١٢

قال « مروان بن الحكم » — وقد كان حاضرا — « للوليد بن عتبة » :

— عصيتني حين قلت الك ألا تدعه يمضي أو تضرب عنقه ! .. لا والله ، لا يمكنك مثلها من نفسه أبدا (١)

فأجاب « الوليد » :

— ويحك ! .. انك أشرت على بذهاب ديني ودنياي ، والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها واني قتلت « حسينا » !.. سبحان الله ، أأقتل « حسينا » لما أن قال لا أبايع ؟.. والله ما أظن أحدا يلقى الله بدم « الحسين » الا وهو خفيف الميزان عند الله (٢)

يبايع أو يقتل ؟ !

على هذا صمم بنو عبد شمس !

ومحال أن يبايع « الحسين » ...

محال أن يبايع مثل « يزيد » ، أميرا للمؤمنين ، مهما يبلغ من طغيان السلطان وتحامل المتغلب ، وجبروت الحاكم :

ولست أبالي حين أقتل مسلما
على أي جنب كان في الله مصرعي !..

وما كان « الحسين » طامعا في أمر من أمور الدنيا ، ولا كانت له في الخلافة رغبة ، ولكن اذا انتهى الأمر الى أن يصير « يزيد » أميرا للمؤمنين ، فلن يبالي « الحسين » ، على أي جنب يكون في الله مصرعه ، ليدفع هذا الباطل بقلبه ولسانه ، ثم بسيفه اذا لم يكن من القتال بد !..

واذ رأى من والي المدينة اصرارا على حسم الموقف ، هاجر بأهله الى مكة ، حيث « عكف الناس على الحسين ، يفدون اليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه ويستمعون الى كلامه وينتفعون بما يسمع منه ويضبطون ما يروون عنه » (٣)

---

(١) بنصه من الطبرى : ١٩٠/٦
وانظر معه « نسب قريش » : ١٣٣ و « مقتل الحسين : ١٢٨ »
(٢) الطبرى ١٩٠/٦ ونسب قريش : ١٣٣
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية . ترجمة الحسين رضى الله عنه
وانظر معه (تاريخ الطبرى) ٢٢٤/٦

وهناك ، فى مهد الدعوة ، طافت « سكينة » بأنحاء البلد العتيق ، ووقفت بالمشاهد التاريخية التى صنعت حياة أسرتها وحياة العالم الاسلامى أجمع . وربما أتيح لها وقتئذ أن ترقب النشاط الأدبى الذى كانت مكة بوجه خاص ، والحجاز بصفة عامة ، مركزا من أهم وأحفل مراكزه ، وحيث كان عدد من شباب الأنصار وفتية قريش ، قد عمرت بهم أندية الشعر ومجالس الطرب والغناء ، وازدهرت فى تلك البيئة الأرستقراطية ، مدرسة خاصة فى الغزل ، كما ازدهرت صنعة الألحان وفن الغناء

وأهلّ موسم الحج من عام ٦٠ هجرية ، و « سكينة » مع آلها فى مكة ، فأتيح لها أن تشهد بعينيها وتسمع بأذنيها ، كل ما كان يدور فى مكة ، فى ذلك الموسم بخاصة ، من ضجيج أدبى حافل صاخب ، وان راحت فى الوقت نفسه تصغى بكل قلبها وفكرها ، الى نشاط من نوع آخر ، كان أبوها الامام مصدره ومركزه معا ، فمنذ وفد « الحسين » الى مهد الدعوة المحمدية ، وأوى الى مهبط الوحى الذى اصطفى له جده العظيم ، وجموع المسلمين تلتقى عنده ، تلتمس لديه ما يعصمها من غلبة الضلال ، وتلوذ به فى حيرتها بين يقظة الضمير وعجز الوسيلة ، وتستمد منه زادا من القوة المعنوية ، تقوى به على مواجهة الطغيان المستبد !

وحين كانت مكة تستقبل عددا من شباب الحجاز وشعراء الغزل ، الوافدين عليها فى موسم الحج ، كانت هناك جموع أخرى جاءت لغير ما جاء له شعراء الغزل. أولئك هم رسل العراق ، وفدوا على مكة يبايعون « الحسين » ابن بنت النبى ، على الجهاد فى سبيل الحق المغتصب من أولى الناس به ، واسترداد الخلافة من بين يدى الفتى الأموى الذى تلقاها عن أبيه ميراثا هرقليا ، وليس لها بكفء ولا هو بها جدير . ونشطت الرسائل ما بين الكوفة والمدينة ، وأعين الأمويين يقظى لا تنام ...

***

وفى هذا العالم المضطرب بشتى الأحداث ، المائج بتيارات متناقضة ،

المزدحم بحشد من طلاب الغناء وعشاق الأدب ، وآخر من طالبى الجهاد المنهيئين لبذل الحياة رخيصة فى سبيل ما يؤمنون انه حق .. فى هذا العالم المضطرب المتناقض ، استقبلت « سكينة » ربيعهـا الثالث عشر وتفتح صباها النضير عن آية من آيات الحسن والبهاء والجلال . وقد فرضت عليها الظروف أن تحيا بين التيارين المتجاذبين ، فى مستهل هـذا الصبا الغض . وبقدر ما رأى فيها أبوها مبعث راحته وأنسه ، رأت فيها أم القرى نموذجا فريدا رائعا لا عهد لها بمثله أناقة وظرفا وبهاء ! وأقبلت عليها فتيات مكة ، يرمقنها فى اعجاب مشوب بشىء من الحسد ، ورحن يرصدن لفتاتها الساحرة ، وحركاتها الرشيقة الفاتنة ، وذلك النمط الخلاب الذى استحدثته فى تنسيق شعرها

وفى هذا الموسم بالذات ، بدأت شخصيتها تظهر فى المجتمع ، وتلفت اليها القلوب والأبصار . كانت مكة فى موسم الحج ، تعتبر سوقا أدبية واجتماعيـة حافلة . فحين أقبل موسم الحج من عام ٦٠ هـ ، وسكينة هناك ، شهد الموسم فى دنيا النساء عجبا من العجب : ما من شابة حسناء الا حاولت أن تقلد « سكينة » فيما ظنته سر فتنتها ، وان كانت الآراء قد اختلفت فى تحديد هذا السر ، وذهبت فيه كل مذهب ، فمن قائل انه أنس المحضر وظرف الحديث وسرعة البديهة والذكاء اللماح ، وآخر يرجع به الى حسنها الفريد وأناقتها الساحرة ، وثالث يرده الى ما حف بها من عظمة الأبوة وجلال النسب وسنا النبوة ، ورابع يراه فى هذا كله مجتمعا متكاملا ، وخامس يحسبه جاذبية خاصة ، ليست مما يحدد أو يفسر أو يضبط !

واذا كانت حسان قريش ، قد أعياهن أن يأخذن عنها نبل الملامح وجلال الطلعة ونور النبى ، فقد بقيت لهن بعد ذلك أناقتها يقلدنها حيثما استطعن ، وشاعت « الطرة السكينية » فلم تبق واحدة منهن لم تنسق شعرها على النسق المستحدث الذى ابتدعته الهاشمية الحسناء ، وراح المجتمع المكى يعرف فى بناته أثر النموذج الفريد ، ويصغى الى ما يتناقله من أنبـاء

ظرفها ونوادر دعابتها الذكية المرحة

وخفقت قلوب الشباب الهاشمى والقرشى ، تسائل فى لهفة : أيهم يسعده زمانه بأن تكون هذه الدرة الفريدة من نصيبه ؟ وبأيهم ترضى « سكينة » زوجا ؟

واذا كانت أمانيهم جميعا قد تعلقت ببنت الحسين ، فان واحدا منهم فقط ، هو الذى خطا خطوة حاسمة فى سبيل الظفر بها ، ذلك هو ابن عمها « الحسن المثنى » (١) الذى يرشحه شرفه وبنوته للامام « الحسن ابن على » لمصاهرة عمه الحسين

وكان الحسن المثنى وصى أبيه

لكنه لم يشأ — أو لعله لم يستطع — أن يسمى « سكينة » حين تقدم الى عمه الحسين يطلب مصاهرته فرحب به العم وقال مجيبا : (٢)

— اخترت لى ابنتى فاطمة ، فهى أكثر ابنتى شبها بأمى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانها لذات دين وجمال

ثم أردف بعد لحظة ، فيما تقول الرواية :

« وأما سكينة ، فغالب عليها الاستغراق مع الله . فلا تصلح لرجل »

واذا صحت الرواية ، فان عبارة الامام فى ابنته تلفت النظر ، فهذا الاستغراق مع الله قد يبدو مناقضا لما أشرنا اليه آنفا من مرح « سكينة » وأنس محضرها ، وما ذاع من أناقتها وميلها الى الدعابة ، لولا أننا نعود فنذكر أنها اعتادت — منذ وعت — أن تلوذ بهذا المرح لتبدد بعض الغيوم التى كانت تخيم على البيت العلوى الكريم ، منذ مصرع الامام على ، وما تلاه من أحداث أليمة حمل الامام الحسين عبئها الباهظ . وقد بلغ من حرص « سكينة » على اصطناع المرح ، ما استطاعت معه أن تطوى همومها فى أعماقها ، وأن تحتفظ بهذه الابتسامة الوضاءة يتألق بها وجهها الصبوح ، دون أن يلهيها هذا المرح ، الذى فرضه عليها دورها فى المعركة ، عما تنزع اليه بحكم ميراثها النبوى ونشأتها فى رحاب البيت

(١) نسب قريش : ٥١ — وأم الحسن هى خولة بنت منظور الهلالية الفطفانية

(٢) الاغانى : ٥٩/١٤ أساسى . وفيه رواية أخرى ، كالتى فى « نسب قريش : ٥١ » ان الامام خيره بين فاطمة وسكينة ، فكان هو الذى اختار فاطمة وانظر « مقتل الحسين : ٣٦٨ »

المحمدى ، من تعبد يصل أحيانا الى درجة الاستغراق مع الله ، والاندماج فى ذلك الجو الروحى المسعد الذى كانت تجد فيه ملاذها عندما يثقل عليها دورها الصعب . فما كانت ظروف الحياة فى بيئتها تلك بالتى تعين على الابتهاج والمسرة ، فلا عجب اذا رأيناها تنتقل من حال الى حال فتلقى الدنيا بوجهها الضحوك وظرفها المرح ، ثم لا تكاد تخلو الى نفسها حتى تقبل على العبادة فى خشوع واستغراق ، استجابة لما فى طبيعتها المتدينة ، وميراثها من الآباء والأجداد ، ومتخففة من ثقل الدور الذى يفرض عليها ما لا تحتمله ظروف حياتها من تهلل واشراق

ونطيل الوقوف عمدا عند هذه النقطة بالذات ، لأنها تعيننا على فهم شخصية « سكينة » ولعلنا ما اهتممنا بمسايرة أحداث العصر ، فى تتبعنا لمراحل حياة بنت الحسين ، الا لكى نلقى من هذه المسايرة ضوءا على ما يبدو لسوانا تناقضا فى تلك الشخصية التى حيرت كتّاب السير : فالأخبار عنها تصورها أحيانا خلية البال ، معنية بأناقتها ، مزهوة بملاحتها مندمجة فى الحياة الاجتماعية ، ثم يقرءون مع ذلك وصف أبيها لها بأنها « يغلب عليها الاستغراق مع الله » (١) ويروون أخبارا أخرى تؤكد انها كانت مضرب المثل فى العفة والتقوى والايمان

وكان من السهل أن نفترض ، أن « سكينة » عاشت عهدين مختلفين ، كانت فى أولاهما مستغرقة فى الله مندمجة فى حياة التعبد ، ثم تغيرت من بعد ذلك ، فانصرفت الى حياة المجتمع واندمجت فيه

وكان من اليسير كذلك ، أن نحدد المرحلة الأولى ، بالفترة التى عاشتها فى كنف أبيها الامام ، وأن نجعل مقتله ــ رضى الله عنه ــ هو الحد الفاصل بين العهدين

أجل كان من اليسير أن نفترض هذا ، فيسهل علينا به أن نفسر تناقض الأخبار عنها بين الزهد المسرف والدعابة اللافتة ، بين قول أبيها رضى الله عنه « انها يغلب عليها الاستغراق فى الله » وبين هذه « الطرة السكينية » التى فتنتت عصرها .. بين المشهور من تقواها وعفتها وايمانها ، وبين

(١) السيد عبد الرزاق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٦٨

الذى ذاع من ظهورها فى المجتمع الأدبى ، واحتفائها بالمغنين والشعراء ...

لكنما يحول بيننا وبين الاطمئنان الى هذا الافتراض ، ما أجمع عليه الذين كتبوا عنها ، من كون أبيها رضى الله عنه كان يأنس اليها ويحب مجلسها ، ويستطيب محضرها ، منذ كانت طفلة صغيرة ، وقد سجلت الأخبار ، أنها سئلت لم تمزح ، وأختها فاطمة قلما تفعل ، فكان جوابها ما سمعناه من أن أختها سميت باسم جدتها الزهراء ..

ثم ان هذه المقارنة بين الأختين — اذا صح خبرها — قد كانت وهما بعد فى بيت واحد ، قبل أن تمضى الحياة بكل منهما فى سبيل . وفاطمة قد تزوجت فى حياة أبيها الحسين ، واذن فقد كان ميل سكينة الى المرح مبكرا ، وقبل أن تفجع — ويفجع العالم الاسلامى — بمقتل أبيها فى كربلاء ، ولم يمنع هذا المرح أباها رضى الله عنه ، بأن يصفها بالاستغراق فى الله !

من الممكن أن يقال ، أن سكينة كانت أكثر استغراقا فى العبادة وأقل ظهورا فى المجتمع ، أيام كانت تعيش فى كنف أبيها الامام ، كما يمكن أن يقال كذلك ، ان الأحداث التى ألمت بها — بعد مقتل أبيها — قد وجهتها نحو الحياة الاجتماعية بضجيجها اللاغب ، على ما سوف نرى فى الدور الثانى من حياتها . يقال هذا وذاك ، فيقبل فى طمأنينة ، فمما لا ريب فيه أن مذبحة كربلاء ، قد كانت ذات أثر بعيد حاسم ، فى حياة الشريفة الهاشمية الحسناء ، بل لا نغلو اذا قلنا انها الحد الفاصل بين طورين متميزين ، فى حياتها الحافلة . لكن الذى لا نرتاب فيه كذلك ، أن بوادر هذا الازدواج فى الشخصية ، قد لاحت منذ صباها الباكر . وأسميه ازدواجا فى الشخصية ، دون أن أعنى به — بحال ما — ذلك المدلول الاصطلاحى المستحدث للازدواج ، عند النفسيين ، وانما أقصى ما أريده به ، هو ذلك الجمع بين المرح والدعابة والمزاح ، وبين التقوى والتعبد والزهد أو ما يشبه الزهد !

هذا الازدواج — وأضطر الى استعماله على كره منى — هو الطابع

المميز لشخصية سكينة . ظهرت بوادره فى العهد الأول ، عندما كانت تلازم أباها وتعيش فى كنفه ، ثم ازداد على الأيام وضوحا ، وان اتخذ صورة أخرى ، نراها بعد حين

ولقد زفت « فاطمة » الى الحسن المثنى فى حياة أبيها الحسين ، وقيل فيما قيل يومئذ : ان امرأة مردودتها سكينة ، لمنقطعة القرين فى الحسن(١)

وبقيت سكينة فى بيت الحسين ، وقد أرضاها أن يستبقيها أبوها رضى الله عنه الى جانبه ، فما كانت لتؤثر على مكانها هناك أى مكان سواه ...

وتناقلت بيوتات مكة كلمة أبيها « فلا تصلح لرجل » فتقاصرت عنها أطماع الشـــباب ورأوها فوق منالهم ، وطويت قلوب كثير منهم على يأس ...

وأغلب الظن أن « مصعب بن الزبير » كان من بين الذين صكت الكلمة مسمعهم ، فلقد حدثته أمانيه (٢) أن يتزوج من سيدة نساء عصرها جمالا وظرفا وحسن خلق وعزة نسب وشرف منبت ، وكان يرى نفسه أهلا لها : أبوه الزبير بن العوام بن خويلد صاحب رسول الله وصـــهر أبى بكر الصديق ، وأمه الرباب بنت أنيف بن عبيد الكلبى ، وجدته لأبيه : صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعمته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، جدة سكينة لأمها

وكان لمصعب من شرفه الخاص ، ما يظاهر هذا النسب العريق ويكافئه ، فهو الذى يتناقل المجتمع القرشى أنباء جوده وشجاعته ومروءته ، حتى لقد شاعت فيه القولة المشهورة : « لو أن مصعب بن الزبير وجد أن الماء ينقص مروءته لما شربه » وهو الذى قال فيه خصمه عبد الملك بن مروان : « متى تغذو قريش مثلك ؟ »

وكان الى جانب ذلك كله جميلا فى الرجال ، حتى ليقول « جميل بن معمر » : ما رأيت مصعبا يختال بالبلاط الا غرت على « بثينة » وبينهما

(١) نسب قريش (٥١) ومقاتل الطالبيين (١٨٠) والاغانى ٢٠٤/١٨
(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢٥٨/١ ط دار الكتب المصرية

ثلاثة أيام ! (١)

وقد حدث « مصعب » برغبته تلك فى الزواج من سكينة ، ثلاثة من أصحابه ، هم أخوه عروة بن الزبير ، وعبدالله بن عمر ، وعبد الملك بن مروان (٢) ــ ولم تكن المعركة قد انتقلت اليه والى آل الزبير ــ على أنه لم يبادر بخطبة سكينة ، ربما لأنه لم ير الظرف مناسبا وأبوها الحسين مشغول بهمومه الكبار ، وربما لأنها كانت لا تزال بعد صغيرة فلا بأس على مصعب فى أن يتمهل انتظارا لفرصة مواتية ، وربما لأنه كان لا يرى فى غيره من شباب قريش كفئا لبنت الحسين !

حتى ذاع نبأ خطبة الحسن المثنى لاحدى ابنتى الحسين ، ثم زواجه من فاطمة دون سكينة التى رأى أبوها انها باستغراقها مع الله لا تصلح لرجل، فكف مصعب عن التعلق بأمنيته فى الزواج منها ، وراح يغالب رغبته فيها ويأخذ قلبه بالانصراف عنها مخافة أن يرده الحسين خائبا فلا يستطيع مصعب أن يلقى الناس وقد كذب كلمتهم فيه : لو انه وجد الماء ينقص مروءته لما شربه !

فلتكن سكينة من تكون ! لتكن الماء الذى لا تقوم حياته بدونه ، فانه ليؤثر أن يهلك ظمأ على أن يطلب هذا الماء مع احتمال رده عنه !

والا لما كان مصعب بن الزبير ، ذاك الذى ضربت به قريش المثل فى المروءة وعزة النفس !

ترى هل شعرت الغادة الهاشمية بذلك الصراع الذى احتدم فى نفس الفارس النبيل بين عاطفته ومروءته ، بين وجدانه وعقله ؟!

مثل « مصعب » من لا يدع هواه المكبوت يغلبه أو تفلت منه بوادر تشى به وتنم عليه . ولعل سكينة لو درت بما يطوى لما ملكت له أكثر من الرثاء والعطف ، فقد كانت فى شغل بدورها المزدوج ، عن شجون العواطف،

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ــ ٢١/٤
والبلاط موضع بالمدينة مبلط بالحجارة بين المسجد النبوى وسوق المدينة
(٢) عيون الاخبار : ٢٥٨/١

وشئون الخطبة والزواج ، فهل يرضى مصعب أن يكون موضع رثاه من فتاة حسناء ؟

الموت أهون من هذا !

وثمة سؤال آخر يعرض : هل لفتت سكينة فى ذلك الموسم من مواسم الحج ، أعنى سنة ٦٠ هـ ، عمر بن أبى ربيعة شاعر الجمال ؟ من المحقق أن عمر كان هناك ، يملأ مكة بغزلياته وأحاديث مغامراته الموسمية ، حيث اعتاد — فيما قالوا — أن يتعقب من يفد على مكة من ربات الجمال، ليتغزل بأسمائهن فى قصائد يتناقلها الرواة ويسرى بها الركبان عبر البيد والقفار، ويتغنى بها قيان المدينة ومغنوها الكبار: عزة الميلاء ، والغريض ، وابن سريج ، ومالك ، ومعبد

على أن الموسم انفض ، دون أن يتعرض « عمر » لاسم سكينة ، وهو الذى لم يدع ذات جمال ، الا حياها باختيار اسمها لاحدى غزلياته . ألجم لسانه فلم يقل بيتا واحدا فيه اسم « سكينة » زينة الموسم وأروع جميلاته ، ملاحة ونضرة وأناقة وسحرا ؟

وماذا يجديه أن يكون تغنى بأسماء زينب وهند ورملة والثريا وفاطمة و ... و ... وترك اسم « سكينة » الذى صار بصاحبته أعذب الأسماء ؟

وما كان صمته عن جحود أو تجاهل ، انما ألجم لسانه فرط تهيبه لمكانها ، وهو يعلم ماكان يشغل أهلها وأهل مكة جميعا من تهيؤ «الامام الحسين» للسفر الى العراق ، بعد أن جاءته رسل الكوفة ببيعة عشرات ألوف من أهلها (١)

كلا ، لا سبيل لعمر الى التغزل بأعذب اسم لأجمل مسمّاة

وأقول اسم « سكينة » لأنى مطمئنة الى أن عمر فى غزلياته ، لم يكن يتحدث عن واقع بينه وبين الشريفات القرشيات ، وانما كان يختار أسماء الجميلات منهن لما ينظم من غزليات ، على ما سوف نوضحه بمزيد تفصيل وبيان ، فى الفصل الثالث من هذا الكتاب.

---

(١) تاريخ الطبرى : حوادث سنة ٦٠هـ و « مقتل الحسين : ١٤٧ »

مذبحة كربلاء

خرجت مكة كلها تشيع سبط الرسول ، وقد خرج منها بأهل بيته جميعا غداة يوم من أخريات ذى الحجة سنة ٦٠ هـ يريد الكوفة ، بعد أن ألحت عليه شيعته هناك ، بأن يقدم اليهم ليجاهد بهم ضد الطغيان

وقيل ان الذين أتته ببيعتهم من العراق أربعون ألف رجل !

ولو استطاعت « مكة » لحالت دون خروج أهل البيت النبوى منها ، ولكن الامام قد وعد ، وعزم ، وقرر ، فما تستطيع قوة فى الأرض أن تصده عن النضال فى سبيل الحق ، وما يستطيع أى انسان ، أن يغريه بايثار السلامة والعافية ! (١)

ولقد حاول نفر من خاصة قرابته أن يحولوا دون استصحابه لأهل بيته فى رحلته تلك : حاول ذلك ، أخوه محمد بن الحنفية ، وابن عم أبيه عبدالله بن عباس ، وعبدالله المخزومى ، وغيرهم .. (٢) ولكن ماذا تجدى المحاولة أمام من هانت عليه الدنيا وصمم على أن يبيعها بالآخرة ؟

وقيل فيما قيل : « ان أهل العراق هم الذين قتلوا أباه وأخرجوا أخاه » وذكروه برأى الامام الشهيد كرم الله وجهه فيهم ، ولكنه أبى الا أن يمضى وهو يقول لناصحيه :

« ان من هوان الدنيا على الله ، أن رأس يحيى بن زكريا أهدى الى بغى من بغايا بنى اسرائيل » !

أو يقول :

« انى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما ، وانما خرجت لطلب الاصلاح فى أمة جدى : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمن قبلنى بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن رد على هذا ، أصبر حتى يقضى الله بينى وبين القوم وهو خير الحاكمين »

(١ ، ٢) تاريخ الطبرى : ٦/٢١٧

وكان وداع ...

مضى فطاف بالبيت العتيق ، وسعى بين الصفا والمروة ، وقضى عمرته (١)
كان وداع ضجت مشارف مكة من عنفه وقسوته ، فما هان على أهلها أن يحرموا من طلعة الحسين ، وفيها نور النبوة . ولا هان على مكة أن تمسى وقد ارتحل عنها خير بيت وأعز رهط :

بيت النبى ورهط الامام ...

ومضى الركب الحسينى فى طريقه الى ما كتب له فى الغيب المضمر

وآب المودعون الى البلد الحرام ، وما فيهم من لا يجد فى قلبه مس الحزن ولذع الفراق ، وقلقا مبهما لم يلبث أن خالطه شيء من الخوف ، منذ جاوز الركب الحمى الآمن وودعوا جيرة الحرم .

وكانوا جميعا يدركون أن لهذا الرحيل ما بعده ، وان اختلفت بهم الظنون فيما سوف يكون

وتعلل أكثرهم بالأمل فى أن « يزيد » لن يجرؤ على أن يبوء بدم الحسين ، لا تعففا أو تأثما أو تحرجا ، ولكن خوفا من أن يفسد عليه الأمر كله بمقتل الحسين ، ويبوء بلعنة المسلمين حيثما كانوا ...

ولكن قلة ــ منها عبد الله بن الزبير (٢) ــ كانت على شبه يقين من أن دور يزيد فى الصراع العتيد بين بنى عبد شمس وبنى هاشم قد حان ، وأنه فى طيش شبابه ورعونة فتوته وجبروت سلطته ، لن يدع الحسين ينفلت سالما ، وليس ليزيد حلم أبيه معاوية ، ودهاء رأيه ونضج خبرته

***

ترى هل لمحت « سكينة » من هودجها ، وهى تتلفت نحو أم القرى لتتزود منها بنظرة طويلة قبل الفراق ، هل لمحت بين الجموع التى احتشدت لوداع الركب ، مصعب بن الزبير يرسل عينيه اثر الراحلين ، فى تجمل واجم ؟

وهل استطاعت بأنوثتها الذكية اللماحة ، أن تدرك وراء تجمله ما يطوى

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢١٧/٦

(٢) تاريخ الطبرى : ٢١٧/٦ و « مقتل الحسين : ١٧٤ »

عليه جوانحه من سر لا يذاع ؟

وهل تراها لمحت بينهم كذلك ، عمر بن أبى ربيعة يشيع [illegible]حلتها وقد بان عليه اثر الخيبة والغيظ ، وعز عليه أن تمضى ربة الجمال والأناقة ، ولم يحى اسمها تحية اعجاب وتمجيد واكبار ؟

أغلب الظن أنها كانت فى شغل عن هذا كا[illegible] بما يتوزع قلبها وبالها من شجن الفراق لأم القرى ، ومن تلك ال[illegible]موم الكبار التى استغرقت الركب كله اذ يغذ السير عبر البيد [illegible]قفار ، الى مصيره المحتوم ، المقدر له عند عالم الغيب .

***

ونطوى الأيام على عجل ، لنرى الركب وقد دنا من مشارف العراق ، وآن للراحلين المجهدين أن يحطوا الرحال بعد تلك المرحلة الشاقة المجهدة لكن أحدا منهم لم يهش لقرب المناخ ...

وتثاقلت رواحلهم ، وهى تقطع المرحلة الأخيرة الباقية ، وقد خرس الحادى منذ بلغ القوم فى الطريق ــ عند زرود أميال من القادسية ــ نبأ مصرع الشهيد ، مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، ابن عم الامام الحسين ، ورسوله الى أهل الكوفة (١)

وغشيتهم غاشية من حزن ثقيل ممض ، حين لاحت لهم مشارف العراق من بعيد ، فذكرتهم بشهيد الأمس الذى لم يجف دمه بعد ، وبشهيد قبله ، ثوى هنالك منذ عشرين عاما ...

ورددوا مرثية الحسين فى ابن عمه عقيل ، حين أتاه نبأ مصرعه المثير :

فان تكن الدنيا تعد نفيسة
فان ثواب الله أعلى وأنبل
وان تكن الأبدان للموت أنشئت
فقتل امرىء بالسيف فى الله افضل

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٢٥/٦
وزرود : فى طريق الحاج من الكوفة ، أنظرها فى (معجم البلدان لياقوت)

وان تكن الأرزاق قسماً مقدرا
فقلة حرص المرء فى السعى أجمل !
وان تكن الأموال للترك جمعها
فما بال متروك، به المرء يبخل؟ (١)

واذ هم فى طريقهم — على ثلاثة أميال من القادسية — لاح لهم غبار مثار ، ما لبث أن تكشف عن جيش جرار ، عرفوا فيه جيش عبدالله بن زياد — والى الكوفة ليزيد — وعلى رأسه الحر بن يزيد التميمى (٢)

وعدل « الحسين » بصحبه عن طريق الجيش ، فاعترضه الحر بن يزيد ، وما زال الحسين يسير بأهله وأصحابه يمينا ويسارا ، والحر يعترضهم مرة ويخلى بينهم وبين الطريق أخرى ، حتى بلغ بهم كربلاء ، فتركهم ينيخون هناك ، فى اليوم الثانى من مستهل العام الجديد

ورجع الحسين بصره فى الجيش الرابض تجاهه ، فاذا الجند جميعا من أهل العراق !

وكانت عدتهم — أول الأمر — ألف مقاتل ، والركب الحسينى لايتجاوز عدده بضعة وسبعين فارسا ، من آل البيت وأصحاب الحسين !

***

وعرف « الحسين » مصيره ، قبل أن يقول له الحر بن يزيد وهو يسايره :

— انى لأشهد لئن قاتلت لتقتلن ، ولئن قوتلت لتهلكن .

وأجاب الحسين الامام :

— أفبالموت تخوفنى ؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونى ؟ ما أدرى ما أقول لك ، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله : أين تذهب فانك مقتول ؟

(١) مقتل الحسين : ١٩٢
(٢) تاريخ الطبرى : ٦/٢٢٠

فقال :

سـأمضى وما بالموت عار على الفتى

اذ ما نوى حقا وجاهد مسـلما (١)

***

وطاف بهم فى ليلتهم الأولى هناك ، طائف منذر بما يطوى الغد القريب

وفى مخيم النساء ، كانت هناك السيدة زينب أخت الحسين ، وزوجه الرباب بنت امرىء القيس ، وبنتاه سكينة وفاطمة ، وبقيـة العقـائل الكريمات من آل هاشم !

وطال عليهن الليل وهن يتذاكرن ما كان ، ويتوقعن ما سيكون :

وتركتهن السيدة زينب الى خيمة أخيها ، حيث رأته هناك مكبا على سيفه يصلحه ، وهو يرتجز :

يا دهر أف لك من خليـل   كم لك بالاشراق والأصـيل

من طالب وصاحب قتيـل   والدهر لا يقنع بالبـديل

وكل حى سـالك السبيـل   ما أقرب الوعد من الرحيل

وانما الأمر الى الجليل (٢)

صاحت العقيلة :

ــ واثكلاه .. ينعى الحسين نفسه ! ليت الموت أعدمنى الحياة . ماتت أمى فاطمة ، وأبى على ، وأخى الحسن ، ولم يبق غيرك يا خليفة الماضين وثمال الباقين ..

وفى رواية أنها سمعته رضى الله عنه يقول لها : انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى : انك تروح الينا

فصاحت : يا ويلنا ..

قال : ليس لك الويل يا أخية . اسكتى رحمك الرحمن (٣)

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦/٢٢٩ ومقتل الحسين : ١٧٨

(٢) تاريخ الطبرى : ٦/٢٣٩ ومقاتل الطالبيين : ١١٣ ومقتل الحسين : ٢٣٩

(٣) تاريخ الطبرى : ٦/٢٣٧ ومقاتل الطالبيين : ١١٣

وبلغت صيحتها — فى سكون ذلك الليل الموحش — مسامع النساء فى مخيمهن ، فهرعن الى « الحسين » والكرب يعصف بهن عصفا ..

ونظر الحسين اليهن مليا ، ثم قال :

— يا أختاه ، يا أم كلثوم ، وأنت يا زينب ، وأنت يا سكينة وأنت يا فاطمة ، وأنت يا رباب ، اذا أنا قتلت فلا تشق احداكن على جيبا ، ولا تخمش وجها ، ولا تقلن هجرا ...

وأطرقن جميعا واجمات ، وخيم على المكان سكون ثقيل راكد ، ما لبث أن مزقه نشيج مؤلم :

تلك كانت « سكينة » تبكى !

هذه التى أخذت نفسها منذ كانت ، أن تؤنس أباها كلما ثقل عليه الهم ، وأن تبدد بسنا ابتسامتها المشرقة ، بعض ما يغشى الأفق حوله من ظلال ربداء ..

وأقبل عليها أبوها فى حنو ، وفى عينيه نظرة حزن وعتاب : كيف هان على سكينة أن توجع قلبه ببكائها ، وهى التى كان يجدها موضع أنسه كلما ألم حادث أو اشتد كرب ؟

وسألها ملاطفا : أفلا يهون عليها الأمر أن أباها يدفع حياته ، دفاعا عن حق ودفعا لباطل ، وانه ملاق غدا ، جده الرسول ، وأمه الزهراء ، وأباه الامام ، وأخاه الحسن ، وعمه حمزة ، وابن عمه مسلم بن عقيل ، وانها لا بد لاحقة بهم فى غد قريب أو بعيد ؟

لكنها لم تكف عن البكاء ، وكأنما كانت تبكى هموما طالما طوتها ، وتذرف دمعا آده الاحتباس الطويل

ورنا اليها أبوها الحبيب طويلا ، ثم قال فى شجاعة المستسلم لقضاء الله وقدره :

— سيطول بعدى عنك يا سكينة (١) ، فهلا ادخرت البكاء لغد ، وما غد ببعيد ؟

(١) السيد توفيق الفكيكى : السيدة سكينة : ص ١٢٣

ثم أوصى أمها « الرباب » أن ترعاها ، وقام يصلى ...

ولف الكون كله صمت خاشع ، لم يعد يسمع فيه سوى صوت « الحسين » فى تهجده ، يتلو قرآن الفجر الذى بدأ نوره الشاحب ينبثق من خلال الظلمة ، معلنا عن مولد يوم جديد ، هو الثالث من محرم سنة ٦١ هـ

وأصبحوا فاذا الأجناد قد تدفقت من الكوفة ، حتى بلغت عدتهم أربعة آلاف مقاتل — عليهم «عمر بن سعد بن أبى وقاص» (١) — ثم يلبثوا أن زادوا حتى غدوا — فى بعض الروايات — عشرين ألفا !

ولم يبدأ قتال ، وانما أحاطت الآلاف بالحسين وصحبه ، معترضة سبيلهم الى الماء !

وتتابعت الأحداث سراعا فى عنف شرس ، فما استكمل الأسبوع دورته ، الا والساحة المشئومة قد امتلأت بجثث الشهداء من آل البيت ، غارقة فى بحار من دماء ..

وأمسك هنا عن وصف المذبحة المروعة ، فما من كتاب عن تاريخ تلك الفترة لم يصفها ، وأنا بعد لا أجد لى طاقة على احتمال الحديث عنها ، بعد أن فعلت ذلك مرة ، فى كتابى عن عقيلة بنى هاشم « بطلة كربلاء » ! (١)

وانما أمضى مسرعة لأقف الى جانب سكينة وقد اقتحم العسكر فسطاطها وأخرجت لترى هنالك أشلاء مختلطة مبعثرة ، لأبيها الحسين الامام ، وأعمامها : عبدالله وجعفر وعثمان والعباس ومحمد وأبى بكر ، بنى على بن أبى طالب

وأخيها الشقيق عبدالله بن الحسين

وأخويها لأبيها ، على الأكبر وجعفر

وأولاد عمها : أبى بكر وعبدالله والقاسم ، بنى الحسن بن على

(٢) تاريخ الطبرى : ٦/٢٣٤

(٢) ط دار الهلال بالقاهرة ، ودار الاندلس ببيروت

وابن عمتها زينب «عون الأكبر بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب» (١)
وأخيه لأبيه : محمد بن عبدالله بن جعفر
وبنى العم عقيل بن أبى طالب : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبدالله
هكذا ، مرة واحدة ، وفى يوم واحد ، هو التاسع من شهر المحرم سنة ٦١ هـ (٢)

***

وفى ذهول وقفت « سكينة » تطل على البقايا والأشلاء ...
حتى فرغ القوم من جز الرءوس وجاءوا يسوقونها مع النساء الى الكوفة

هناك ألقت بنفسها على ما بقى من جسد أبيها — وفيه ثلاث وثلاثون طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة — واعتنقته متشبثة به ، فخيل اليها انها تسمع صوتا يخرج من منحره الدامى : (٣)

شيعتى ما ان شربتم عذب ماء فاذكرونى
أو سمعتم بغريب أو شهيد فاندبونى

ولكنهم انتزعوها من جسد أبيها فى قسوة ، وألحقوها بركب السبايا !
وان كانت احداهن لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه ، فيذهب به منها ! (٤)

وسيق الركب التعس ، نحو الكوفة
وعند أطراف الساحة ، تمهل الركب برهة ريثما ألقت السبايا نظرة أخيرة على البقايا

وطيف برأس الحسين فى أحياء الكوفة على مرأى من السبايا الثواكل ..
أين الأشياع والأنصار ؟

---

(١) ذكر فى الطبرى (٦/٢٧٠) ان عون بن عبد الله ، وأمه جمانة بنت المسيب كان من بين قتلى كربلاء ، وذلك هو عون الاصغر المقتول يوم الحرة . انظر مقاتل الطالبيين ص١٢١ ، ١٢٤
(٢) أنظر « أسماء من قتلوا من بنى هاشم مع الحسين عليه السلام ، وعدد من قتل فى كل قبيلة » فى (تاريخ الطبرى : ٦/٢٦٩)
وفى (مقاتل الطالبيين ٩١)
(٣) السيد الفكيكى : ١٢٤ ومقتل الحسين : ٣٦٨
(٤) تاريخ الطبرى ٦/٢٦٠

أين الألوف الأربعون الذين ألحوا فى دعوته ليناضلوا معه فى سبيل الحق ، فجاءهم ملبيا ، وترك مأمنه الى جوار البيت العتيق ؟

ألا فليملئوا عيونهم من رأس سيد الشهداء ، وليروا نساءه وبناته سبايا !

وليملئوا أسماعهم بصوت ابنته سكينة اذ تقف فى الركب التعس حاسرة الوجه ، مهيضة الجناح تقول : (١)

ان الحسين غداة الطف يرشقه
ريب المنون فما ان يخطىء الحدقه
بكف شر عباد الله كلهم
نسل البغايا وجيش المرق الفسقه

وصوت أمها الأرملة الثكلى اذ تقول : (٢)

ان الذى كان نورا يستضاء به
بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبى ، جزاك الله صالحة
عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلا صعبا ألوذ به
وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن
يغنى ويأوى اليه كل مسكين

***

وسيقت العقائل الهاشميات الى قصر الامارة ، فى موكب تعس لم تشهد الدنيا له مثيلا من قبل ولا من بعد !

بنات النبى سبايا ، قد حملن على أقتاب الجمال بغير وطاء ، ممزقات الجيوب حواسر الوجوه حافيات الأقدام ، يتقدمهن حملة الرءوس على أسنة الرماح !

(١) السيد توفيق الفكيكى : السيدة سكينة بنت الحسين : ١٢٥
(٢) السيد عبد الرزاق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٩٤

رءوس الحسين وثمانية وسبعين من اخوته وبنيه وبنى أخيه وأبناء عمومته وأصحابه ! (١)

وتركت الجثث حيث هى على الساحة المشئومة ، ملقاة بالعراء ، تسفى عليها الريح ، وتحوم عليها جوارح الطير وسباع الجو ، ويرعى فيها وحش الفلاة :

ابك حسينا ليوم مصرعه　　بالطف بين الكتائب الخرس
أضحت بنات النبى اذ قتلوا　　فى مأتم والسباع فى عرس(٢)

وسمعت سكينة أمها الرباب تقول : (٣)

واحسينا ، فلا نسيت حسينا
أقصدته أسنة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعا
لا سقى الله جانبى كربلاء !

***

ثم أمر « ابن زياد » بالموكب المثير ، فسيق الى دمشق ، كى تقر عينا « يزيد » بمشهده ومرآه

وعرض الموكب على أهل دمشق ، قبل أن يساق الى حضرة يزيد ، ليضع الرأس بين يديه ، ويتح له أن ينكث ثنايا الحسين بقضيب كان فى يمينه وهو ينشد متمثلا :

نفلّق هاما من رجال أعزة
علينا وهم كانوا أعق وأظلما (٤)

ثم يقول لمن حوله :

« ان هذا وايانا لكما قال الحصين بن الحمام المرى :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٦١/٦ ومقاتل الطالبيين : ٧٨ ومابعدها
(٢) عيون الانباء لابن قتيبة : ٢١٢/٢
(٣) الاغانى : ١٥٨/١٤ ساسى - ومقتل الحسين : ٣٩٣
(٤) تاريخ الطبرى : ٢٧٦/٦ - ومقاتل الطالبيين : ١٢١ - وفى (نسب قريش : ١٢٨) ان الذى تمثل بهذا البيت ، عبيد الله بن زياد

أبَى قومُنا أن ينصفونا فأنصفت

فواضب فى أيماننا تقطر الدما » (١)

وفى رواية انه تمثل كذلك بقول عبد الله بن الزبعرى فى أحُد :

ليت أشـــياخى ببدر شـــهدوا

جزع الخـــزرج من وقع الأسَلْ

قد قتلنا القـــرم من أشياخهم

وعدلنا ميل بدر فاعتدل (٢)

وبلغ المشهد ذروته ، حين أخذ أحد أتباع يزيد يحدق فى بنت الحسين ، ويسأل سيده أن يهبها له أمة جارية !

« لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ! »

وقام آخر من أهل الشـــام فقال : « ان نساءهم لنـــا حلال » . فقال على بن الحسين :

« كذبت ، ما ذلك لك الا أن تخرج من ملتنا » (٣)

***

ثم كانت نهاية المطاف فى مدينـــة جد الحسين ، محمـــد عليه الصلاة والسلام ...

وكانت قد تلقت خبرا بقدوم « على بن الحسين » مع عماته واخواته . حمله اليها رسول من « على » الذى نجا من المذبحة ، وما كان لينجو لولا أن حمته عمته زينب ، وكان فى حضنها مريضا ...

وضجت المدينة بالبكاء ، وهى تستقبل بقـــايا الركب الحسينى الذى ودعته الحجاز منذ أقل من شهر ! !

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٧٦/٦ والكامل لابن الاثير : ٣٧/٤

(٢) مقاتل الطالبيين : ١١٩ وشذرات الذهب ٩١/١ والابيات فى (السيرة لابن هشـــام : ١١٤/٣) حلبى . ويضيف رواية اليها بيتا ليزيد
لاهلو واستهلوا فرحا ثم قالوا مايزيد لاتشل ـ وانظر مقتل الحسين :٤٢٨

(٣) تاريخ الطبرى : ٢٦٣/٦ ـ ونـسب قريش : ٥٨
والذى فى (مقاتل الطالبيين ص ١٢٠) أن السيدة زينب بنت على ، هى التى قالت ذلك

وبرزت النساء ــ كل النساء ــ صارخات باكيات ، وخرجت عقيلات بنى هاشم من خدورهن حاسرات الوجوه ، يندبن فى لوعة : واحسيناه ، واحسيناه ..

وخرجت « زينب بنت عقيل بن أبى طالب » ــ أخت هانىء ــ على الناس ناشرة شعرها وهى تبكى قائلة :

ماذا تقــولون ان قال النبى لكم
ماذا فعلتم وأنتم آخــــــر الأمم

بعترتى وبأهلى بعــــد مفتقــدى
منهم أسارى ومنهم خضــبوا بدم

ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم
أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى [1]

فما سمعها أحد الا وبكى ...

ولم تبق دار فى المدينة الا وبها مأتم ..

ولبثت مناحة الشهداء هنالك قائمة أياما وليالى ، حتى جفت المآقى من طول ما سكبت من دمع ، وحتى صحلت الحلوق من طول ما أجهدها النواح ...

---

(١) هذه رواية الطبرى للابيات وذكر أنها لامرأة من بنى عبــد المطلب (٢٢١/٦) ورواه الزبيرى فى (نسب قريش : ٥٨) وابن قتيبة فى (عيون الانباء : ٢١٢/٢) مع خلاف يسير فى الشطر الاول من البيت الثانى ، ومع ذكر اسم القائلة : زينب بنت عقيل
وانظر « مقتل الحسين : ٤٠٧ »

بعد العاصفة

وتضطرب الأخبار عن « سكينة » فترة ، فيقال فى رواية انها صحبت
متها « زينب » فى خروجها الى مصر ، حين أدرك « يزيد » خطر مقامها
لمدينة ، فأمر واليه بها أن يفرق بينها وبين الناس حتى لا تكون ثورة (١)

واذا صحت هذه الرواية ، فلعل سكينة قد عادت الى الحجاز بعد وفاة
متها زينب ، فى شهر رجب من عام ٦٢ هـ

وفى المدينة ، أقامت مع أمها الرباب ، التى خطبت بعد فترة الحداد ،
'بت أن تستبدل بالحسين زوجا وبرسول الله صهرا ، وقالت : ما كنت
'تخذ حما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

والله لا أبتغى صهرا بصهركم
حتى أغيب بين الرمل والطين (٢)

على أن الرباب ، ما لبثت أن ماتت بعد عام واحد ، حزنا عليه ، وعلى
لدها عبدالله (٣)

وأقامت « سكينة » بعدها فى كنف أخيها السجاد ، زين العابدين ،
لى بن الحسين ..

وهنالك فى المدينة ، عادت أنظار بنى هاشم فالتفتت الى الشريفة
لحسناء من جديد ، وقد ثقل الحزن عليها ولما تزل فتاة فى مستهل الشباب
عز الصبا ..

وأحاط بها قومها يلحون عليها فى الزواج ، ابقاء على سلالة الحسين
نقية الطاهرة التى لم يبق منها ـــ بعد مذبحة كربلاء ـــ غيرها ، وأختها

---

(١) العبيدلى النسابة : السيدة زينب وأخبار الزينبات : ١٨ ـ وأنظر معه الفصل الخاص
به الرحلة الى مصر ، فى كتابنا « بطلة كربلاء »

(٢) الأغانى : ١٥٨/١٤ ساسى

(٣) تاريخ ابن الأثير : ٧٣/٤

فاطمة ، وأخيها على زين العابدين

وكانت الأحداث العنيفة التي مرت بها ، قد غيرت من حالها ، فلم تعد تتشبث البقاء فى بيت أبيها بعد أن غاب عنه من كانت ترى حياتها لا تدور الا فى فلكه

ولعلها استجابت وقتئذ لرغبة آلها ، ورضيت بالزواج ، ولما يزل الجرح فى قلبها حيا ينزف دما ..

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياتها ، تكاد الحقيقة تغيب فيها وسط حشد من متناقض الأخبار وشتى الروايات ..

أما أختها « فاطمة » فاستقرت بها الحياة فى بيت زوجها الحسن المثنى ، ابن عمها الحسن رضى الله عنه . فلما حضرت زوجها الوفاة قال لها : « انك يا فاطمة امرأة مرغوب فيك ، فكأنى بعبد الله بن عمرو بن عثمان اذا خرج بجنازتى قد جاء على فرس مرجلا جمته لابسا حلته ، يخطبك ، فانكحى من شئت سواه ، فانى لا أدع من الدنيا ورائى همًّا غيرك . » وصدق حدسه .. تزوجها عبدالله بن عمرو بعد تمنع منها واباء ، فولدت له محمدا (الديباج) والقاسم ورقية بنى عبدالله بن عمرو ، وكانت ولدت للحسن ابنه عبد الله الذى كان يقول : « ما أبغضت أحدا بغضى عبدالله بن عمرو ، وما أحببت حب ابنه محمد الديباج » (١)

---

(١) نسب قريش : ٥١

الفصل الثاني

في بيت الزوجية

- مثل من مروياتهم
- مع عبد الله بن الحسن
- مع مصعب بن الزبير
- مع ابراهيم بن عبد الرحمن
- مع الاصبغ المرواني
- مع عبد الله بن عثمان الحزامي
- مع زيد بن عمر العثماني

مثل من مروياتهم

وحين نعرض لسير الحياة بسكينة فى هذه المرحلة ، نضع أمامنا ذلك الحشد من أخبار زيجاتها التى بلغت فى بعض الروايات ست مرات ، وتضاءلت فى روايات أخرى فلم تتجاوز الواحدة أو الاثنتين !

نقل السيد توفيق الفكيكى عن السيد عبد الرزاق الموسوى فى كتاب له عن السيدة سكينة ما نصه :

« وهناك من المؤرخين من يحكى تزويج السيدة سكينة من ابن عمها عبد الله الأكبر ابن الامام الحسن المقتول فى الطف مبارزة .. وأما غيره من الأزواج ، فعلى ذمة التاريخ »

وأضاف السيد توفيق : « وهناك من الأدلة التاريخية المجمع على صحتها ، ما يؤيد أن سكينة تزوجت بعد ابن عمها عبدالله بن الحسن بن على ، بمصعب بن الزبير ، زوجه اياها أخوها الامام على بن الحسين السجاد ــ ع » (١)

وأورد « ابن العماد الحنبلى » أسماء ثلاثة أزواج على الترتيب التالى : (٢)

مصعب بن الزبير ، ثم عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فأمره سليمان بطلاقها

ولم يذكر اسم عبدالله بن الحسن الذى اقتصر عليه السيد الموسوى

وكذلك لم يذكره « ابن خلكان » وانما جاء بقائمة فيها أربعة أزواج ، تبدأ « بمصعب بن الزبير » فهلك عنها .. ثم تزوجها عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، ثم الاصبغ وفارقها قبل الدخول بها ، ثم

(١) الفكيكى : السيدة سكينه بنت الحسين : ص ١٢٢ ــ وانظر معه (مقتل الحسين : ٣٦٨)
(٢) شذرات الذهب : ١٥٤/١

زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها ، وقيل فى ترتيب أزواجها غير ذلك » (١)

والذى فى « نسب قريش ، للمصعب الزبيرى » :

« كانت سكينة عند مصعب بن الزبير ، ثم خلف عليها عبدالله بن عثمان ابن عبدالله بن حكيم بن حزام بن خويلد ، فولدت له حكيما وعثمان ــ المعروف بقرين ــ وربيحة التى تزوجها العباس بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان ، ثم خلف على سكينة زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، ثم خلف عليها ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فلم يتم نكاحه .. ثم خلف عليها الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم فحملت اليه بمصر فوجدته قد مات » (٢)

فصار عدد أزواجها عنده خمسة أشخاص

وجاء أبو الفرج الأصبهانى بخمس قوائم مختلفة : (٣)

١ ــ مصعب بن الزبير ، ثم الاصبغ ، ثم زيد العثمانى ، ثم ابراهيم ابن عبد الرحمن

٢ ــ الاصبغ ، ثم زيد العثمانى ، ثم مصعب بن الزبير ، ثم ابراهيم بن عبد الرحمن

٣ ــ عمر بن الحسن ، ثم زيد العثمانى ، ثم مصعب ، ثم الاصبغ المروانى ، ثم عبدالله بن عثمان

٤ ــ عمر بن حكيم بن حزام ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان ، ثم مصعب ، ثم ابراهيم

٥ ــ عبدالله بن الحسن ، ثم مصعب ، ثم الاصبغ المروانى ، ثم زيد العثمانى ، ثم ابراهيم

وتضيف رواية سادسة ، أن عبدالله بن مروان خطبها بعد مصعب ،

---

(١) وفيات الاعيان : ٢٩٨/١

(٢) نسب قريش : ٥٩ ــ وجاء فى « جمهرة انساب العرب : ان زوجها زيدا العثمانى ، هو ابن عمر بن عثمان ، لا عمرو (٧٩) وجاء مرة بهذا الاسم زيد بن عمر فى نسب قريش ١٢٠ ولعل سبب الاختلاف أن لعثمان بن عفان ولدين هما عمر وعمرو . أنظر نسب قريش (١٠٤) ، والجمهرة (٧٥)

(٣) الاغانى : ١٥٨/١٤ ، ١٦١

فرفضـــته أمها وقالت : لا والله ، لا تتزوجه أبدا وقد قتــل مصعبا ، ابن أخى (١)

وفى هذه القوائم أضيف اسمان جديدان الى الأسماء التى وردت فى الروايات السابقة ، وهما : عمر بن الحسن ، وعمر بن حكيم بن حزام !

واختارت « دائرة المعارف » قائمة عجيبة ، ننقلها بنصها من الترجمة العربية : (٢)

« فأول أزواجها مصعب بن الزبير ، وقد أنجبا من هذا الزواج ابنة تزوجت من أخى مصعب !

ثم تزوجت عبد الله بن عثمان ، ابن أخى مصعب بن الزبير ، ثم الزبير ! ابن عمرو بن عثمان بن عفان

ثم الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، ولم يدخل بها . ثم ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف . وعمرو بن الحاكم (!) بن حزام »

وفى هذه القائمة عجائب وغرائب من الأغلاط والأوهام :

فابنتها من مصعب ، تزوجت من أخى مصعب ، وهو عمها !!

وعبدالله بن عثمان ، هو ابن أخى مصعب بن الزبير كما تقول الدائرة ، وليس لمصعب أخ يدعى « عثمان » فى أى مرجع من مراجعنا ، وقد أورد الزبيرى ــ حفيد الزبير ــ أسماء ولد الزبير بن العوام ، ولا عثمــان فيهم ! (٣)

وزوجها الثالث فى الدائرة : الزبير بن عمرو بن عثمان . وليس لعمرو ولد يدعى الزبير ، فى (جمهرة أنساب العرب) و (نسب قريش)

وآخر أزواجها فى الدائرة : عمرو بن الحاكم بن حزام ، وليس لحزام ولد يدعى الحاكم وانما هو حكيم ، وليس لحكيم ولد يدعى عمرا فى أنساب العرب أو نسب قريش (٤)

---

(١) الاغانى : ١٦٢/١٤ ساسى
(٢) مادة : سكينة بنت الحسين
(٣) نسب قريش : ٢٣٦ والجمهرة ١١٢
(٤) نسب قريش : ٢٣١ والجمهرة ١١٢

أما عبدالله بن الحسن ، فصرحت الدائرة بأنهـا تسـتبعد زواجه من سكينة ، دون أن تبين لنا سبب هذا الاستبعاد ..

***

وتقارن بين هذه المرويات فترى :

أن زوجها الاول : هو ابن عمها عبدالله بن الحسن ، فى احدى روايات الأغانى (١) . واقتصرت عليه بعض المصادر الشيعية الحديثة (٢)

ولم يذكره « ابن خلكان » ، وأنكرته دائرة المعارف دون تعليل لهذا الانكار .

أو هو عمر بن الحسن ، فى رواية الأغانى نفسها

أو هو مصعب ، فى رواية ابن خلكان والمصعب الزبيرى واحـدى روايات الأغانى ودائرة المعارف

أو هو الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان فى رواية بالأغانى !

ويختلف موضع الزوج بين الأزواج ، فيكون الاصبغ أولهم فى رواية ، ورابعهم فى أخرى !

وتختلط الاسماء اختلاطا عجيبا ، بل شاذا ، حتى ليشطر الاسم الواحد شطرين ، يؤتى بكل شطر منهما على حدة ، فيكون منهما زوجان للسيدة سكينة !

فعبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، شطر شطرين ، فكان منه زوجان :

عبدالله بن عثمان ، وعمرو بن حكيم بن حزام ، أو كما ترجم فى دائرة المعارف : عمرو بن الحاكم !

***

ولا سبيل هنا — أمام ما نرى من تناقض وشذوذ — الى تتبع حياتها الزوجية تتبعا دقيقا يعتمد على اليقين التاريخى ، هذا اليقين الذى يعز علينا فى التاريخ النقلى بوجه عام ، وهو هنا فى موضوع زوجية سكينة ،

---

(١) ج ١٤ ص ١٠٠ [illegible]

(٢) توفيق الفكيكى : السيدة سكينة ٧٥ ، ١١٢ — والسيد عبد الرزاق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٦٨

أبعد من أن يلتمس وأعز من أن يدرك أو ينال . فنحن لا نكاد نحاول ما نبغى من تتبع حتى يلقانا عنت من اضطراب الروايات وتناقض الأخبار وتعدد الأقوال واشتباك السبل ، الى حد يتعذر علينا معه أن نستبين وجه الحق فى هذا الحشد المختلط المشتبك ، واذ ذاك لاسبيل الى أن نطمع فى أكثر من الترجيح الذى يعتمد على ما نسميه الطمأنينة النفسية ، أكثر مما يعتمد على مرجحات منهجية وقرائن غالبة

لقد كان أمر هذا التناقض فى الروايات والأخبار يهون ويسهل ، لو أنه توزع بين مراجع شتى مختلفة ، ينفرد كل منها باحدى الروايات فيكون سبيلنا الى الترجيح أن نختار أقدمها أو آصلها أو أدعاها الى الثقة ، على هدى القواعد المقررة للترجيح والوزن والمقابلة ، والتعديل والتجريح

ولكنا هنا أمام روايات متناقضة تجتمع فى المصدر الواحد ، دون محاولة من مؤلفها للفصل بينها أو حسم الخلاف فيها ، بل دون كلمة تؤذن بأنه يحس ضيقا بهذا الخلاف

ففى صفحة واحدة من الأغانى مثلا ، تقرأ أربع روايات متناقضة متضاربة ، سردها أبو الفرج متتابعة ، ثم لا شىء أكثر من هذا السرد (١)

واذا بلغ الخلاف فى الموضع الواحد أن يكون الاصبغ المروانى أول أزواجها فى رواية ، ورابعهم فى أخرى ، ثم لا يشار الى هذا الخلاف بكلمة واحدة

واذا بلغ الشذوذ فيما يروى عن حياتها الزوجية ، أن تلد لمصعب بنتا تنزوج من عمها أخى مصعب ! (كما فى دائرة المعارف الاسلامية) وأن يقال أن الرباب بنت امرىء القيس ، التى أهلكها الحزن على زوجها الحسين فماتت بعده بعام واحد ، قد بعثت من قبرها لتشهد مصرع مصعب بعد سنة ٧٠ هـ وترفض زواج بنتها سكينة من قاتله ! (كما فى الأغانى)

وأن تزوجها (دائرة المعارف) عبدالله بن عثمان ، ابن أخى مصعب ، وعمرو بن الحاكم بن حزام ، ولا خبر فى نسب قريش وأنساب العرب عن

(١) جـ ١٦/١٤ ساسى

وجود أخ لمصعب اسمه عثمان ، أو حفيد لحزام اسمه عمرو بن الحاكم

أقول : اذا بلغ الأمر هذا المبلغ من التناقض والاضطراب والشذوذ ، فمن العبث أن نطمع فى قرائن منهجية مرجحة ، وبخاصة اذا قدرنا أن هذه الكتب — وحالها كما رأيت — هى مصدر مادتنا عن السيدة سكينة ، ومرجعنا فيما نورد من أخبارها

والذين جربوا الدراسة اعتمادا على الرواية النقلية ، قد عانوا الكثير من مثل ذلك التناقض اللافت ، وضجوا بالشكوى منه ، سواء منهم الذين اشتغلوا بالتراجم والسير ، ومن كتبوا فى التاريخ السياسى أو الأدبى

وحين تعوزنا مرجحات منهجية ، لا يبقى لدينا الا أن نلوذ فى قبول ما نقبل من هذه المرويات ، ورفض ما نرفض منها ، بما تطمئن اليه نفسيا على هدى ما نعرف من سنن الفطرة ، وما نقرأ من شتى الأخبار ، وما نفهم من ايحاء البيئة وطبيعة الشخصية ومقتضيات الموقف !

مع عبدالله بن الحسن

ونبدأ بعبدالله بن الحسن بن علي

ذاك الذي اقتصرت عليه بعض المصادر الشيعية الحديثة ، ولم يذكره ابن خلكان ، وذكره أبو الفرج مرة باسم عبدالله ومرة باسم عمر ، وقالت الدائرة : « أما ما ذكره صاحب الأغاني من زواج سكينة بابن عمها عبدالله بن الحسن بن علي ، فقول يصح لنا انكاره »

لماذا صمتت الدائرة فلم تذكر كلمة عما دعاها الى الانكار ؟.. وليس الانكار أمرا سهلا ، ولا هو مما يجوز أن يرسل بغير دليل

انه — في حساب المنهج — كالاثبات تماما ، كلاهما يقتضيان أن تأتي بدليل ..

وذلك بخلاف التوقف ، فهو وحده الذي لا يلزمك بالدليل : وانما يكفي فيه ألا تطمئن في الخبر الى اثبات أو انكار

ولسنا نملك هنا أي دليل ، يؤيد مسلك (الدائرة) في استبعاد القول بزواج سكينة من ابن عمها الحسن ، فصمت بعض المراجع التاريخية عن ذكره ، لا يمكن أن يرقى الى مرتبة القرائن — بله الأدلة — بعد الذي أشرنا اليه من تناقضها واضطرابها

واذن فليس ثمت ما يمنع من أن يكون عبدالله بن الحسن خطبها أو تزوجها كما ذكرت المصادر الشيعية

ولكنا نعلم أن عبدالله قد قتل بالطف مع أخيه القاسم ، ذكر ذلك الأصفهاني في (مقاتل الطالبيين) والطبري الذي أورد اسم عبدالله والقاسم ابني الحسن ، بين من استشهدوا مع الحسين في كربلاء ، وذكره كذلك الزبيري في نسب قريش ، وابن حزم في الجمهرة ، والسيد عبد الرزاق

الموسوى فى (مقتل الحسين : ٣٢٨)

ونحن نطمئن ، الى أن سكينة قد قتل عنها أبوها ولما تتزوج ..

ولو قد تزوجت فى حياته ، لما فات ذلك — فيما نرجح — الذين أرخوا للحسين ، كما لم يفتهم خبر خطبة الحسن المثنى لاحدى ابنتى عمه ، واختيار الحسين ابنته فاطمة زوجة له

ولما فات الذين تتبعوا أنساب قريش

فلعله اذن خطبها الى أبيها ، ولم يتم الزواج . كما ذكر « الطبرسى » فى أعلام الورى

ويرجح عندنا عدم اتمام الزواج ، ما ذكره السيد عبد الرزاق الموسوى فى (مقتل الحسين : ٣٢٨) من أن عبد الله بن الحسن كان غلاما ، يوم مقتله بالطف

ولا نملك ما نضيفه الى هذا ، وليس فى أى مرجع مما بين أيدينا ، ما يشير الى هذا الزواج بأكثر من الخبر المقتضب ، الذى أوردناه (١) ، والذى ليس فيه أكثر من انه تزوجها وقتل عنها بالطف ولم تلد له

وأغلب الظن ان السيدة سكينة نفسها لم تشغل بهذه الخطبة الأولى — لو صح الخبر عنها — فى تفرغ واهتمام ، بل كان بالها مشغولا بهذا الأب الحبيب فى معركته العنيفة ، وأن الأحداث قد جذبتها الى دوامة الاعصار ، وشغلتها عن خطيب وبيت ، كما فعلت بعمتها السيدة زينب ، التى عاشت فى صميم المعركة ، حتى كدنا ننسى أنها زوجة وأم

وقد ألهت الفجيعة الكبرى فى الحسين « زينب » عن ولد لها استشهد مع عمه فلم نسمعها تذكره أبدا ، وكذلك ألهت الرباب — أم سكينة — عن ولدها عبدالله ، فلم يصل الينا أى خبر يصور حزنها عليه ، وانما الذى وصل الينا أنها رثت زوجها الامام ، وعاشت تبكيه حتى ماتت حزنا عليه ، بعد عام واحد من كربلاء (٢)

---

(١) عن « الاغانى » والسيد عبد الرزاق الموسوى . والطبرسى
راجع قوائم الازواج التى أوردناها فى مستهل الفصل

(٢) ابن الاثير : الكامل ٧٣/٤

فلا غرابة اذن فى أن تكون خطبة عبد الله لسكينة ، قد مرت بها عابرة كأن لم تكن ، لا فى حسابها هى ، ولا فى حساب الذين كتبوا تاريخ تلك الفترة ، وهزتهم أحداثها الكبار ، فما عادوا يذكرون الا المأساة الفادحة ، التى خضبت صفحة من التاريخ الاسلامى ، لا نعرف لها مثيلا ، بشاعة وعنف أثر ...

وما كان من السهل أن تفرغ بنت الحسين لمشاغل الزواج ، فى تلك الفترة التى تلاحقت فيها الأحداث الجسام ، متدافعة فى سرعة عنيفة تبهر الأنفاس ، نحو ذروتها الفاجعة !

ولا كان من المقبول أن تسكن الى زوج ، وتدع أباها فى همه الأكبر، وهو الذى ما كان يأنس الا بها ، ولا يستريح الا اليها ..

مع مصعب بن الزبير

وانما تبدأ حياتها الزوجية الحقة ، بمصعب بن الزبير

والأرجح عندنا أنه كان أول من تزوجته بعد مقتل أبيها الامام

وهو أول أزواجها عند ابن خلكان (٢٩٨/١) وعنـد المصعب بن عبدالله الزبيرى فى نسب قريش (٥٩)

وكذلك هو أولهم فى احدى روايات الأغانى (١٦٢/١٤) وفى شذرات الذهب (١٥٤/١)

وسواء أكان أول من تزوجها على ما ذكر هؤلاء ، أم كان قد تزوجها بعد أن قتل خاطبها الأول عبد الله ، ابن عمهـا الحسن ـ على ما تقول الرواية الأخرى ـ فالذى لا يكاد يختلف فيه ، ان مصعبا يأخذ المكان الأول فى حياتها الزوجية الطويلة

ومعه بدأت تحس نوعا من الاستقرار ، وتحاول أن تتناسى ما مر بها من محن وكروب ، ولما تزل فتاة فى عنفوان الصبا وعز الربيع

امنية قديمة

وقد أشرت من قبل ، الى أن الزواج من سكينة كان أمنيـة قديمة لمصعب ، تعلقت بها رغبته أيام ظهرت فى المجتمع المكى لأول مرة ، عندما صحبت أباها رضى الله عنه فى رحلته الى البيت الحرام ، اثر ولاية يزيد ابن معاوية ، والحاحه على واليه بالمدينة أن يأخذ له البيعة من الحسين قسرا

ويبدو أن مصعبا صارح برغبته هذه بعض أصفيائه ، بعد أن خرجت من مكة مع من خرج من آل الحسـين ، فى رحـلة الموت ، تلك التى

انتهت بمذبحة كربلاء ..

ففى كتاب « عيون الأخبار » ، ان أربعة من رجالات قريش ، هم : « عبد الله بن عمر ، وعروة بن الزبير ، ومصعب بن الزبير ، وعبد الملك ابن مروان ، اجتمعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم مصعب : « تمنوا » . فقالوا : « ابدأ أنت » . فقال : « ولاية العراق ، وتزوج سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله » وتمنى عروة بن الزبير الفقه ، وأن يحمل عنه الحديث ، وتمنى عبد الملك الخلافة ، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة » (١)

فلما حالت الظروف أول الأمر دون زواجه من « سكينة » تزوج من تلك الأخرى التى تمناها : عائشة بنت طلحة ، غادة قريش الجميلة التى خلد اسمها شعراء الحجاز : عمر بن أبى ربيعة ، والحارث بن خالد المخزومى ، وابن قيس الرقيات (٢) ، فى قصائد رجعتها معازف المغنين وأصوات المغنيات ، كما تعلقت بها آمال عدد من أمجد الفتيان القرشيين ، فما يمضى عنها زوج الا سارع الخطاب متلهفين الى تلك التى شاعت فيها قولة « أبى هريرة » حين رآها لأول مرة : سبحان الله !.. كأنها من الحور العين (٣)

و«عائشة» كانت تجمع الى جمالها عزة النسب : فأبوها طلحة بن عبيد الله التيمى ، الصاحب الجليل . وأمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق ، وخالتها عائشة أم المؤمنين

تزوجها قبل « مصعب » ، ابن خالها « عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق » . وكانت خالتها السيدة عائشة هى التى سعت فى هذا الزواج ، فلقى عبد الله الأمرين من دلالها ومصارمتها وشراستها — وكان يقال فى نساء بنى تيم : هن أشرس خلق الله وأحظاهن عند أزواجهن . وكانت عمتها أم اسحق بنت طلحة عند الحسين بن على ،

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ٢٥٨/٢ دار الكتب المصرية
(٢) اقرأ أشعارهم فى (الاغانى ج ١١ دار الكتب)
(٣) الاغانى : ١٨٩/١١ دار الكتب ، وأنظر فيه كلمة أخرى لابى هريرة ، ص ١٩٢ ، ١٨٠

فســمع مرة يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهى مصــارمة لى لا تكلمنى .. »

وزاد « عائشة بنت طلحة » زهو الجمال شراسة على شراسة ، حتى مكثت مصارمة غضبى عند خالتها السيدة عائشة ، فقيل له : «طلقها» ، فأجاب منشدا : (١)

يقولون : طلقهــا لأصــبح ثاويا
مقيمــا على الهم ! .. أحــلام نائم
وان فراقى أهــل بيت أحبهم
لهم زلفة عندى لاحدى العظائم

ولبث يكابد منها ما يكابد ، فى صبر واحتمال ، حتى مات عنها فما فتحت فاها عليه ! ..

مات ، وترك لها أربعة بنين : عمران ــ وبه كانت تكنى ــ وعبــد الرحمن ، وأبا بكر ، وطلحة ، وبنتا واحدة هى نفيسة تزوجها الوليــد ابن عبد الملك (٢)

ومع ذلك العبء الثقيل من الأبناء ، وما ذاع فى المجتمع القرشى من أخبار ما لقى زوجها الراحل من شراستها ومصارمتها ، هفت قلوب الى الزواج منها

وكان « مصعب » أحد هؤلاء ...

وقد أحب أول الأمر أن يستطلع حالها بعد أن أثقلتها الأيام بأعبــاء الحمل والولادة خمس مرات ، فبعث « عزة الميلاء » ــ المغنية المشهورة ــ لتأتيه بوصفها ، وكانت « عزة » خبيرة بشئون النساء . فمضت عزة ، حتى دخلت على عائشة فابتدرتها قائلة :

ــ فديتك ، كنا فى مأدبة ــ أو مأتم ــ لقريش ، فتذاكروا جمــال

---

(١) كذا فى الاغانى (١١/١٨١ دار) والذى فى (نسب قريش ص ٢٧٧) ان هذه الابيات لعبد الله ، فى زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل

(٢) كذا فى (جمهرة أنساب العرب : ١٢٨) ومثله فى (الاغانى ١١ ، ١٨٠ دار الكتب) وقال فى (نسب قريش) بعد ذكر ولد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر : وامه عائشــه بنت طلحة . (ص ٢٧٨) ولعله خطأ مطبعى صوابه : وأمهم عائشة بنت طلحة ، كما فى الجمهرة والاغانى

النساء وخلقهن ، فذكروك فلم أدر كيف أصفك ، فديتك ، فألقى ثيابك .

ففعلت عائشة ...

وتأملتها عزة مليا ثم قالت : خذى ثوبك فديتك !

وهمت بالانصراف ، لكن « عائشة » أمسكتها وقالت : قد قضيت حاجتك ، وبقيت حاجتى

سألتها عزة : وما هى ، بنفسى أنت ؟

أجابت : تغنينى صوتا

فاندفعت تغنى لحنها فى شعر جميل بثينة :

خليــلى عوجا بالمحــلة من جمــل
وأترابهــا ، بين الأصــيفر والخبــل

نقف بمغان قد محا رسمَها البلى
تعــاقبت الأيام بالريح والوبل

فلو درج النمــل الصــغار بجلدها
لأندب أعلى جلــدها مدرج النمــل

فقامت « عائشة » فقبلت ما بين عينيهــا ، ودعت لها بعشرة أثواب وبطرائف من الفضة ..

وعادت عزة تقول لمصعب :

« لا والله ما رأيت مثلها مقبلة ومدبرة .. نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر لفاء الجسم ممتلئة الصدر خميصة البطن ... وفيها عيبان : أما أحــدهما فيواريه الخمــار وأما الآخر فيــواريه الخف : عظم الأذن والقدم » (١)

وتزوجها مصعب ..

وأمهرها خمسمائة ألف درهم ، وأهدى لها مثل ذلك (٢)

وكان ابن قيس الرقيات قد قال فى « عائشة » :

---

(١) الاغانى : ١٧٧/١١ دار الكتب
(٢) الاغانى : ومثله فى (عيون الاخبار : ٢٥٨/٢)

ان الخليـــط قـد أزمعـوا تركى
فوقفت فى عرصـــاتكم أبـكى
عجبـــا لمثلك لا يكون له
خـرج العراق ، ومنبـر الملك

وغناه معبد (١)

فكان لعائشة خرج العراق بالزواج من أميره مصعب بن الزبير

أما منبر الملك فادخره القدر لابنتها من زوجها الأول : نفيسة بنت عبد الله حفيد الصديق ، اذ تزوجها ــ لما شبت ــ الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين (٢)

***

وكذلك تحققت لمصعب أمنيتان من أمانيه الثلاث : ولاية العراق ، وتزوج عائشة بنت طلحة

وبقيت الأمنية الثالثة : بقى أن يتزوج من سكينة بنت الحسين ، فيجمع بين أجمل غادتين فى زمانه ! ..

وقد شغلته الشواغل الجسام التى ألقيت على كواهل آل الزبير بعد استشهاد الامام الحسين فى كربلاء ، اذ اعتصم كبيرهم « عبد الله » بالبيت الحرام ودعا الى نفسه بالحجاز . وتأهب « يزيد » لقتاله بعد فترة من مصرع الحسين وأهله ، وسير اليه فعلا جند الشام بقيادة « مسلم بن عقبة » فبدأ بالمدينة وقتل أهلهـا مقتلة عظيمة فسمى ذلك اليوم يوم الحرة ، (٣) وأنهبها جنده ثلاثة أيام ، ثم شخص بمن معه متوجها نحو مكة فأدركته منيته فى ثنية هرشى ، وسـار الجيش من بعـده فحاصر ابن الزبير

لكن الموت لم يمهل « يزيد » حتى يفرغ من ابن الزبير ، فقد جاء نعيه من دمشق يوم أهل ربيع الآخر من تلك السنة ، واستخلف من بعده

(١) الاغانى : ١١/١٧٥ دار الكتب
(٢) جمهرة أنساب العرب : ١٢٨
(٣) تاريخ الطبرى : ٧/٥ . ومقاتل الطالبيين : ١٢٣ ومابعدها ونسب قريش : ١٢٧

ابنه « معاوية الثانى » وعمره يومئذ أقل من ثلاثة عشر عاما وأمه بنت أخى هند ، هاشم بن عتبة بن ربيعة

وأحس الغلام انه أضعف من أن يحتمل العبء الجليل ، فما كاد يلى الخلافة حتى أمر فنودى بالشام : الصلاة جامعة . ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فانى فد نظرت فى أمركم فضعفت عنه . فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب — رحمة الله عليه — حين فزع اليه أبو بكر ، فلم أجده . فابتغيت لكم سنة فى الشورى مثل سنة « عمر » فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم

« ثم دخل منزله ولم يخرج الى الناس ، وتغيب حتى مات بعد أربعين يوما ، فقال بعض الناس : دس اليه فسقى سما ، وقال بعضهم : طعن» (١)

وتولاها مروان بن الحكم ، فلم يلبث أن مات فى مستهل شهر رمضان من العام نفسه (٢)

وخلفه ابنه عبد الملك ، لكن بعد أن استفحل أمر عبد الله بن الزبير بمكة ، وأفلت زمام العراق من بنى أمية

وكاد يفلت كذلك من أيدى الزبيريين بوثوب « المختار » بالكوفة واستفحال خطره ، ومحاولته انتزاع العراق لنفسه ، بدعوى الثأر للحسين !

وهكذا ألفى « مصعب » نفسه فى صميم المعركة ..

لكنه ظل مع ذلك يتلفت نحو الحجاز حينا ، ويشغل بمشاغبات زوجته الحسناء عائشة بنت طلحة حينا آخر ، لعله ينسى أمنيته الثالثة التى لم تتحقق ...

* * *

ولا أدرى كيف رضى « مصعب » أن تذاع فى الناس أخبار حياته الخاصة مع عائشة — ان صحت هذه الأخبار — وأن يدع الشعراء

(١ ، ٢) تاريخ الطبرى : ٣٤/٧

والسمار يجعلون من جمـالها ودلالها ومتعة مصعب بها ، مادة السمر والحديث !

ومن هذه الأخبار التى ذاعت عنه مع عائشة ، ما يبدو مناقضا للذائع المشهور من مروءته ، اللهم الا أن يفسره عامل نفسى جعل « مصعبا » يتلهى عن أمنيته التى لم تتحقق بالزواج من بنت الحسين ، ويحاول اقناع نفسه والناس معه ، بأنه بعائشة فى شغل ! ..

أو لعل جمال عائشة ، كان مادة خصـبة لمخترعات السمار وتهاويل القصاص واضافات الرواة جيلا بعد جيل ...

من تلك الأخبار مثلا ، ان عائشة غضبت عليه يوما ، فشكا ذلك الى أشعب ــ وكان مقربا اليها ــ فسأله أشعب : ما لى أن رضيت عائشة ؟

أجاب مصعب : حكمك

فقال أشعب : عشرة آلاف درهم ! ..

قال مصعب : هى لك ...

ومضى أشعب حتى أتى عائشة فقال لها : جعلت فداءك ، قد علمت حبى لك وولائى قديما وحديثا من غير منالة ولا فائدة ، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقى وترتهنين بها شكرى

سألته : وما عناك ؟ ..

فأجاب : قد جعل لى الأمير عشرة آلاف درهم ان رضيتِ عنه ! ..

قالت : ويحك ، لا يمكننى ذلك ...

فصاح بها : بأبى أنت ، فارضى عنه حتى يعطينى ثم عودى الى ما عودك الله من سـوء الخلق ! .. قالوا : فضحكت منه عائشة ، ورضيت عن مصعب (١)

ومنها : ان مصعبا دخل عليها يوما وهى نائمة متصبحة ، ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار ، فنبهها ونثر اللؤلؤ فى حجرها . فقالت وهى تشيح بوجهها : نومتى كانت أحب الى من هذا اللؤلؤ ! .. (٢)

---

(١) الاغانى : ١١/١٧٧ دار الكتب
(٢) الاغانى : ١١/١٨٢ دار الكتب

ومنها : انه شكا مرة الى كاتبه ابن أبى فروة ما يجد من شراستها ومعاسرتها اياه ، فذهب اليها أبو فروة هذا مع عبدين أسودين ، وادعى أن سيده أمره بحفر بئر تدفن فيها عائشة حية ! .. فقد ظن أنها تبغضه فجن غضبه ! .. فصدقته (! !) وما زالت تلح على أبى فروة أن يعاود مصعبا ، وأقسمت ألا تغاضبه ! (١)

ومنها : انها كانت يوما فى مجلسها مع جمع من نساء قريش ، فغنتها « عزة الميلاء » من شعر امرىء القيس :

وثغر أغر شتيت الثنا
لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظن به
وبالظن يقضى عليك الحكم

وكان مصعب قريبا منهن ، ومعه بعض اخوانه ، فقام منفعلا حتى دنا من الستور المسبلة وصاح : يا هذه ، انا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت !

ثم قال لعائشة : أما أنت فلا سبيل لنا اليك مع من عندك ، وأما عزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا الصوت ثم تعود اليك

وانتقلت عزة الى مجلس الرجال ، فغنت هذا الصوت مرارا ...

وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحا ! (٢)

ومنها تلك القصة التى ذكرها الشعبى ، قال : « دخلت المسجد فاذا أنا بمصعب بن الزبير والناس حوله ، فسلمت ثم أردت الانصراف فقال لى : ادن . فدنوت حتى وضعت يدى على مرفقته ، ثم قال : اذا قمت فاتبعنى . فجلس قليلا ثم نهض فتوجه نحو دار موسى بن طلحة ، فتبعته حتى دخل حجرته ، فرفع السجف فاذا أنا بعائشة بنت طلحة فلم أر زوجا قط أجمل منهما : مصعب وعائشة . قال مصعب : يا شعبى ، هل تعرف هذه ؟.. فقلت : نعم ، أصلح الله الأمير ، هى سيدة نساء العالمين عائشة بنت طلحة ، قال : لا ، ولكن هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر :

---

(١) الاغانى : ١٨١/١١ دار الكتب
(٢) الاغانى : ١٨٣/١١ دار الكتب

وما زلت من ليلى لدن طر شاربى
الى اليوم أخفى حبها وإداجن
وأحمل فى ليلى لقوم ضغينة
وتحمل فى ليلى علىّ الضغائن ! ..

ثم أذن لى فقمت . فلما كان العشى رحت الى المسجد ، واذا هو فى مجلسه هناك ، فسلمت فاستدنانى وقال : هل رأيت مثل ذلك لانسان قط ؟ قلت : لا والله . قال : أفتدرى لم أدخلناك ؟ قلت : لا . قال : لتحدث بما رأيت ! ثم التفت الى عبد الله بن أبى فروة فقال : اعط الشعبى عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا ، فما انصرف يومئذ أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ، وبالثياب ، وبنظرة الى عائشة بنت طلحة » (١)

ومنها ... ومنها ...

وانه لموقف صعب التصديق من مثل مصعب ، أن يبتذل أخبار حياته الخاصة هكذا ، وهو مضرب المثل فى المروءة

ويزيده صعوبة ، ان الرجل كما رأينا ، قد كان فى صميم المعركة التى احتدمت بين بنى أمية وآل الزبير ، بعد أن تولى « عبد الملك » الخلافة فى دمشق

أهى اذن من اضافات الرواة ومبتدعات القصاص ؟ ..

غير بعيد ...

أو لا ، فهى تشاغل من « مصعب » ، حين لم يعد يجديه التعلق بما بدا شبه ميئوس منه ، والالتفات الى ما فاته من تزوج بنت الحسين

ومهما يكن الرأى فى تلك المرويات والأقاصيص ، فالذى لا شك فيه ان احتدام المعركة لم يلبث أن استأثر بأكثر هم «مصعب» فلم يدع له وقتا يفرغ فيه لمشاغله الخاصة ، اللهم الا فترات خاطفة كانت عائشة كفيلة بأن تملأها عليه

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ــ ٢١/٤ ، الاغانى : ٢١٠/٢ دار الكتب

ثم استطاع كر الغداة ومر العشى لمدى سنين ، أن يطوى الأمنيـة القديمة تحت ركام من التشاغل والتناسى ...

المهر الغالى

ولكن الركام انهار ...

ومن تحته بدت الرغبـة المكبوتة متوهجة ، وكأن لم تزدها الأيام والليالى الا احتداما واحتكاما ...

ذاك يوم عرف أن « سكينة » كفت عن تمسكها بالعزوف عن الزواج..

ولن يدعها « مصعب » تفلت من يديه

وشد رحاله الى « المدينة » وتقدم الى أخيها السجاد زين العابدين ، على بن الحسين ، يطلب مصاهرته ، يرشحه لهذا الشرف : كرم أصله ، واكتمال مروءته ، وعزة فروسيته ...

وقبل ابن الحسين ...

وقبلت سكينة ...

وطار النبأ فى أنحاء الحجاز ، ان مصعبا قدم ألف ألف درهم صـداقا لبنت الحسين ..

وزاد فأعطى أخاها عليا ، حين حملها اليه ، أربعين ألف دينار ..

ولم يدهش أحد لهذا ، بعد أن أصدق مصعب « عائشة بنت طلحة » ألف ألف ..

وأين بنت طلحة من بنت الحسين ؟ ..

ولكن شخصا واحدا ضاق بهذا الاسراف ..

ذلك هو عبد الله بن الزبير ، الذى جزع لهذه الألوف المؤلفة ، تدفع مهورا لربات الجمال ، وبنو أمية هنالك فى دمشق ، يشترون بالمال سيوف الرجال ، كيما يحاربوا بها عبد الله بن الزبير ، وأخاه مصعبا ، كدأبهم مع الشهيد الحسين وأبيه الامام على ، رضى الله عنهما

(١) عيون الانباء : ٢٥٨/٢

وسكت عبد الله بن الزبير على مضض ، حتى حملت اليه رسالة من عبد الله بن همام ، يقول فيها :

أبلـــغ أمير المؤمنـــين رســـالة
من ناصـــح لك لا يريـــد خـــداعا

مهر الفتــــــاة بألف ألف كامل
ونبيت ســـادات الجنـــود جيـــاعا

ولو لأبى حفص أقول مقـــــالتى
وأبث ما أنبـــأتـــكم لارتاعا !

قال عبد الله بن الزبير : صدق والله ، لو قيلت هذه المقالة لأبى حفص — عمر بن الخطاب — لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف ... (١)

وكان مصعب يومئـــذ أميرا على البصرة ، فبعث اليه أخوه ؛ يعزله ويستدعيه

***

متى تم زواج سكينة بمصعب ؟

ذكرت احدى الروايات ، انه تزوجها وهو عامل لأخيه على البصرة ، ونرجح انه قد كان بعد سنة ٦٦ هـ

ذلك لأن مصعبا كان فى سنة ٦٥ هـ ، عاملا لأخيه على المدينة (٢) . والمطمأن اليه انه تزوج من ســـكينة وهو بالعراق ، واذا صحت رواية الأغانى عن عزل عبد الله لأخيه مصعب عن ولاية البصرة ، لما أن جاءه خبر الصداق الغالى الذى دفعه لبنت الحسين ، فان الزواج يكون قد تم فى عام ٦٧ هـ ، حيث كان مصعب هناك واليا .. (٣)

على أن عبد الله بن الزبير لم يلبث أن رد أخاه الى البصرة والعراق ، لما ظهر من تخليط ابنه « حمزة بن عبد الله » هناك . ثم ندب مصعبا لحرب

(١) الاغانى : ١٦٣/١٤ ساسى
(٢) تاريخ الطبرى : ١٤٦/٧
(٣) تاريخ الطبرى : ١٦٢/٧

المختار بالكوفة ، بعد أن ظهر بغيه وجوره وفتكه بأهلها ، تحت قناع الثأر لسيد الشهداء

منافسة خطرة

انتقلت العروس الهاشمية ، ذات العشرين ربيعا ، الى بيت زوجها مصعب بالعراق ، فى موكب حافل وجهاز فخم

ولعلها تلبثت فترة عندما وطئت راحلتها أرض العراق ، تحدق فى ساحة الذكريات ، وتكر بها راجعة الى الماضى ...

على أنها حين دخلت بيت مصعب ، طوت أحزانها عند الباب ، كما اعتادت أن تفعل من قديم ، واستقبلت دنياها بوجه يتألق بشرا ، وهنالك لقيتها « عائشة بنت طلحة » فى أتم زينة ، وكأنها المجلوة لعرس !..

وكان ثمة زوجة ثالثة قد سبقتها الى بيت مصعب ، تلك هى « فاطمة بنت عبد الله بن السائب الأسدى » تزوجها مصعب لا عن رغبة وحب ، ولكن بدافع من مروءته وشهامته

فلقد كانت قد تزوجت من قبله ، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فلما دخل عليها طلقها وهى على منصة العرس ، فأتى أبوها عبد الله بن السائب — وكان شريفا وسيطا من سادة بنى أسد — الى حلقة فى المسجد من قريش ، فيها نفر من بنى الزبير بن العوام الأسدى فقال :

« انى زوجت عبد الله بن عمرو من بنتى فاطمة ، فطلقها على منصتها ، وأنا أخاف أن يظن الناس انه رأى سوءا ، وأنتم عمومتها . فقوموا حتى تنظروا اليها » (١)

فقال له عبد الله بن الزبير : اجلس

ثم التفت الى أخيه المصعب وكان جالسا فى الحلقة ، وخطب فاطمة له ، فزوجه اياها أبوها . وقال عبد الله بن الزبير لأخيه :

— انطلق فادخل على أهلك (٢)

---

(١) يلتقى نسب فاطمه مع آل الزبير ، عند أسد بن عبد العزى بن قصى . راجع الجمهرة (١٠٩) ونسب قريش ٢٢٨ ومابعدها

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٠٩ ، ونسب قريش ٢٢١

وانما رجحنا أن تكون فاطمة قد سبقت سكينة الى بيت مصعب ، لأنها ولدت له ولدين هما : عيسى وعكاشة ابنا مصعب ، وقد شهد عيسى موقعة مسكن التى قتل فيها مصعب عام ٧٠ هـ وكان القوم عرضوا عليه الأمان . فأبى الا أن يقتل مع أبيه ، وافتخرت ربيعة بقتله فقال شاعرهم :

نحن قتلنا مصعبا وعيسى وكم قتلنا قبله رئيسا
عمدا أذقنا مضرا التأييسا (١)

وغير معقول أن يكون قد شهد الموقعة طفلا يحبو ، بل الغالب أن مصعبا قد تزوج من فاطمة ، قبل مقتل الحسين بزمن لا نحدد مداه ..

على أن سكينة ما كانت لتهتم بفاطمة ، وانها لتعلم الظروف التى ألجأت مصعبا الى الزواج منها

وانما حسبها أن تهتم بالضرة الأخرى : عائشة بنت طلحة ، وترى فيها وحدها المنافسة الخطرة ، والغريمة التى تستحق أن يحسب لها حساب !

***

وفى بيت مصعب ، بدأت سكينة عهدا جديدا من حياتها ، بدت فيها كما لو كانت نسيت كل ما ذاقت من نكبات ، وما روع صباها من فادحات الخطوب وقاسيات المحن

والحق انها ما نسيت ، لكنها اعتادت أن تحتفظ بالشقاء لنفسها ، والا ترى الناس الا تجملا

واذا كان هذا دأبها فيما مضى من حياتها ، فانها اليوم أحوج الى مزيد من التجمل ، وهى ترى ضرتها عائشة بنت طلحة ، لا تدع وسيلة الا سلكتها فى مجال التنافس والتحدى

وما كان أقوى شعور عائشة بجمالها ، واعتزازها بفتنتها ، وتفننها فى ابراز مواضع الحسن فيها ، حتى ولو كلفها ذلك أن تخرج على العرف أو تتخلى عن حياء الأنثى

---

(١) نسب قريش : ٢٤٩

وقد مر بنا الخبر (١) عن استجابتها « لعزة الميلاء » حين أحبت أن تراها عارية ، لما أراد مصعب خطبتها . وفى الأغانى (٢) أخبار من هذا الصنف وأشد . وفيه كذلك أن مصعبا عاتبها فى سفورها وحاول أن يردها الى الحجاب ، فكان جوابها : « ان الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره !.. ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد ... »

وطالت مراودة مصعب اياها فى ذلك على غير طائل !..

***

وعائشة قد سبقت سكينة الى دنيا زوجها مصعب ، وغلبت عليه زمانا بفتنتها ودلالها ، وكسبت بهذا السبق مزية ربما لم تتح لسكينة التى قضت مرحلة الصبا الغض فى ساحة البيت النبوى ؛ وما كانت لتستطيع ــ بحكم بيئتها ووراثتها ــ أن تتقن فنون الاغراء أو تتخلى لسبب ــ كائنا ما كان ــ عن عزة حيائها . ومن ثم لم تحاول أن تجارى عائشة فى أساليبها أو تصطنع أسلحتها ، وانما لاذت بعزة ملاحتها ولطف محضرها وجلال ترفعها ، وبما أضفى عليها نسبها النبوى من سنا مشرق ، وبهاء ما بعده بهاء

وسكت رواة الأخبار فلم يذكروا لنا شيئا عن حياة سكينة مع مصعب ، مع انهم الذين ملئوا سمع الأجيال بدقائق حياته الزوجية مع عائشة ... لماذا ؟ ..

لست أميل الى الظن بأنه قد كانت هناك أخبار عن سكينة مع مصعب ، وطويت عمدا أو عن اهمال وضياع ، فالاخباريون فى تلك الفترة كانوا أجنح الى التزيد من صنع الأخبار ، ولو كانت شئون الحياة الزوجية الخاصة بين سكينة ومصعب قد خرجت الى الناس وعرضت على أعينهم ، لما سكت الرواة عن ذكرها ، بل لما تحرجوا من الخوض فيها والاضافة اليها . وقد رأيناهم يعرضون « عائشة » وهى زوجة وأم ، مجردة من

---

(١) أنظره فى صفحة ٧٢

(٢) أخبار عائشة بنت طلحة ، فى الجزء ١١ ط دار الكتب

ثيابها أمام هذه أو تلك من النساء ، ورأيناهم يقتحمون بأخبارهم مخادعها وهى مع زوجها ، دون تحرج أو تأثم . ونحن لم نورد من هذه الأخبار الا القليل ، وأمسكنا عن نقل الباقى لأنه ليس مما يجوز أن يجرى على قلم مثلى ، ومن شاء فليرجع الى أخبار عائشة فى (كتاب الأغانى) ليرى الى أى حد كانت أخص شئونها الزوجية ، مادة للاخباريين . واذن فلا سبيل الى القول بأنهم تناولوا جانبا من حياة مصعب الزوجية وأعرضوا عن جانب .. لا سبيل الى الظن بأنهم — وقد دخلوا بيت الرجل — شغلوا باحدى الزوجتين يرصدون حركاتها ويسجلون كلماتها ، بل يحصون عليها أنفاسها ، وتركوا الزوجة الأخرى لا يكادون يحسون وجودها ...

وكان من الممكن أن نحسن الظن برواة الأخبار ، فنحسبهم تعففوا عن ذكر أخبار سكينة مع مصعب ، لأنها بنت الحسين !.. ولكن يحول بيننا وبين هذا ، انهم نقلوا عنها بعد ذلك أنباء مثيرة بعضها مما لا يقبل من مثلها ولا يهون الاطمئنان الى صدوره عنها ، ولم تحل بنوتها للحسين ، ومكانها فى بيت النبوة ، دون ملء الصفحات بهاتيك الأخبار ، بل لم يعصمها هذا النسب العالى ، من ألسنة المتقولين وأقاويل الرواة وأراجيف المبطلين ... (١)

وانما سكتوا ، لأن « سكينة » — فيما نرجح — لم تصطنع أساليب عائشة ، ولم نغذ الرواة بمادة خصبة من أفانين دلالها وأسرار علاقتها الزوجية على نحو ما فعلت ضرتها

ولدينا — على هذا — شاهد من نص ، أورده أبو الفرج فى ترجمة « مصعب » قال : انه لما دخل عليها يودعها وقد تهيأ للخروج لقتال عبد الملك ، صاحت من خلفه :

— واحزناه عليك يا مصعب !

فالتفت اليها وقال : أوَ كلّ هذا لى فى قلبك ؟.. قالت :

---

(١) نعرض لهذا ، فى الحديث عن « سكينة فى المجتمع » فى الفصل الثالث من هذا الكتاب

ـــ أي والله ، وما كنت أخفى أكثر (١)

وهو نص يفسر لنا بوضوح لم لم تكن حياتها الخاصة مع مصعب مادة الاخباريين والرواة ، فضلا عن دلالته على اتزانها العاطفى ، وضبطها لأمرها ، تجاه ما كانت « عائشة » تكشف عنه من أسرار زوجيتها

كان لكل منهما سلاحها الخاص فى تنافسهما على قلب الرجل الذى أحبته كلتاهما أصدق الحب : فأولاهما تثيره بفتنة دلالها وأنوثتها ، وترهقه صدا وقربا ، جفوة واقبالا ، وتبتذل له حينا بكل ما تملك من تفنن واغراء ، أو على حد تعبيرها ، بكل ما قدرت عليه (٢) ، ثم تصارمه حينا حتى تجهده

والأخرى تفتنه بجاذبية شخصيتها الفريدة ، وبكل ما اجتمع لها من ظرف آسر ، وملاحة حلوة ، وجلال ساحر أخاذ

وكانت كل منهما تعرف مكان الأخرى ، وتقدر خطر سلاحها . وربما تلاقتا وجها لوجه فباهت عائشة بما تتقن من أفانين الاغراء ، وأسكتتها سكينة باللقب الذى كانت تطلقه عليها : ذات الأذنين (٣)

وربما اختصمتا الى حكم بينهما ، فيخلص من حرج الموقف بقوله :

ـــ أما أنت ياسكينة فأملح منها ، وأما أنت ياعائشة فأجمل ! (٤)

السر المذاع

على أن حياة أمير العراق لم تكن فارغة لهذه الشواغل النسوية الا قليلا ، فان الصراع بين الزبيريين والأمويين ما لبث أن احتدم عنيفا ضاريا ، وقد كان وجود مصعب فى العراق عقبة كأداء لا سبيل الى حسم الصراع ما بقيت هناك

وقد صكت مسامع الأمويين مدائح الشعراء فى مصعب ، ومنهم عبيدالله

(١) الاغانى : ١١٦/١٨ ساسى
(٢) الاغانى : ٥٥/١٠ ساسى
(٣ ، ٤) الاغانى : ١٦٢/١٤

ابن قيس الرقيات ، اذ يقول : (١)

انما مصعب شــهاب من اللـــه تجلت عن وجهه الظلمـــاء
ملكه ملك قوة ليس فيـــه جبـــروت ولا به كبـــرياء
يتقى الله فى الأمور وقـد أفلـح من كان همـه الاتقـاء

وفى الخبر أن مصعبا أخذ رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه . فقال : « أيها الأمير ، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذى يستضاء به ، فأتعلق بأطرافك وأقول : أى ربّ ، سل مصعبا فيم قتلنى . »

فأمر مصعب باطلاقه ، فقال :

ــ أيها الأمير ، اجعل ما وهبت لى من حياتى فى خفض

فأمر باعطائه مائة الف ، فقال الرجل :

ــ بأبى أنت وأمى ، أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا

قال مصعب : ولم ؟

فأجاب : لأنه قال فيك :

انما مصعب شـــهاب من اللـــه تجلت عن وجهـــه الظلمـــاء

وأنشد بقية الأبيات (٢)

ومن ثم صمم الأمويون على أن يفرغوا لمصعب أول الأمر ، قبل أن يفكروا فى القضاء على رأس الزبيريين العائذ بالحرم

وقد طالت المعركة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بين الزبير ، أعواما ذات عدد قبل أن تصل الى نهاية حاسمة ، وتكررت محاولات عبد الملك ، فى الخروج الى العراق ثم الاياب الى الشام من غير أن يصل الى غريمه . ففى الطبرى (حوادث سنة ٧١) أن عبد الملك كان يخرج من دمشق صيفا بعد صيف ، حتى « بطنان حبيب » ويخرج مصعب للقائه فيعسكر فى « باجميرا » ويلبثان هكذا حتى يهجم الشتاء فيرجع كل منهما الى

(١) عيون الانباء : ١٠٣/٢ .
(٢) عيون الانباء : ١٠٣/٢ وأنظر سمط اللالى للبكرى ٢٩٤/٦

موضعه ، ثم يعودان فى الصيف وهكذا ... (١)

وهم عبد الملك ، فى سنة ٧٠ بقتال مصعب ، ثم اكتفى بأن وجه اليه جيشا ــ عليه خالد بن عبدالله ــ التقى بجيش لمصعب فى البصرة ، ثم انثنى الى عبد الملك مهزوما ...

واذ ذاك صمم عبد الملك على ان يضع حدا لهذه المعركة التى طالت حتى أضجرت ..

وخطب الناس فى الشام ، ليسيروا معه الى مصعب

قال له ناصحوه وقد أشفقوا عليه من لقاء مصعب : هلا أقمت هنا وبعثت على هذه الجيوش رجلا من أهل بيتك ، فان ظفروا فذاك ، وان لم يظفروا بعثت اليهم بالمدد

أجاب عبد الملك : انه لا يقوم بهذا الأمر الا قرشى له رأى ، ولعلّى أبعث من له شجاعة ولا رأى له ؛ وانى أجد فى نفسى بصرا بالحرب وشجاعة بالسيف ان ألجئت الى ذلك . ومصعب فى بيت شجاعة ، أبوه أشجع قريش ، وهو شجاع لكنه يحب الخفض ، ومعه من يخالفه ومعى من ينصح لى (٢)

وانفض المجلس وقد عرف القوم أنه صمم على المسير الى مصعب

ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما ودع أهله وهم بالركوب ، قامت اليه زوجته « عاتكة بنت يزيد بن معاوية » فأعادت الرجاء والتوسل :

ــ يا أمير المؤمنين ، لو أقمت وبعثت اليه لكان الرأى

فأجاب معتذرا ، مصمما : « ما الى ذلك من سبيل ! »

فلم تزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب ، فعلا نشيجها ، واذ ذاك رجع اليها عبد الملك فقال وهو يتجمل :

ــ وأنت ممن يبكى ؟ قاتل الله « كثيرا » ! كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول :

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٨١/٧
(٢) تاريخ الطبرى : ١٨٥/٧

اذا ما أراد الغـــزو لم تثن همّه
حصان عليهـــا نظم در يزينهـــا
نهتـــه فلمـــــــا لم تر النهى عاقه
بكت فبكى مما شـــجاها قطينهـــا

ثم عزم عليها بالسكوت (١)

وانطلق الى العراق حتى عسكر فى « مسكن »

وسار له مصعب حتى عسكر فى « باجميرا »

وكانت رسل عبد الملك قد سبقته الى الكوفة وغيرها ، وتسللت الى نفوس القوم هناك بالمال والأمانى

وشرط عليه رؤساء المروانية بالعراق ولاية اصبهان ، فوعدهم جميعا بها ! (٢)

فما دنا اللقاء ، الا وعبد الملك قد ملأ يديه من أهل العراق ، وأيقن مصعب أنهم خاذلوه ...

ولم يفكر مع ذلك فى النكوص ...

وتهيأ للحرب ، ثم دخل على نسائه يودعهن ، فلما جاء دور سكينة ، وجمت لحظة ، وقد طاف بخاطرها طائف من الأمس البعيد

وحملتها الذكرى الى كربلاء ، فساورها دوار منهك ، فبادر اليهـــا مصعب واعتنقها ، وثقلت عليه وطأة الموقف ، لولا أن لاح له فى تلك اللحظة ، طيف أبيها الامام الحسين ، فهتف بها مشجعا :

ــ ما ترك أبوك يا سكينة لابن حرة عذرا ...

ثم أفلتها من ذراعيه ، وأخذ طريقه الى الباب

فصاحت من خلفه : « وا حزناه عليك يا مصعب ! »

وفاجأته صيحتها ، فرجع اليها وسألها فى لهفة وعجب :

ــ أكان كل هذا ان ، فى قلبك ؟

أجابت : « بلى يا مصعب ، وما كنت أخفى أكثر ... »

(١) أمالى القالى ــ انظر سمط اللالى : ١/١٤ ، والاغانى : ٩/٢١ ساسى
(٢) تاريخ الطبرى : ٧/١٨١

فرنا اليها مليا ، ثم قال فى شجو :

ــ لو كنت أعلم ، لكان لى ولك يا سكينة شأن آخر ...

ومضى الى الميدان وهو يقول :

وان الألى بالطف من آل هاشم
تآســوا فسنوا للكرام التآســيا !

مصرع بطل

وظل يردد البيت حتى أشرف على ساحة القتال ، فاذا جنده من أهل الكوفة قد نكصوا عنه خاذلين ، واذا عبد الملك هناك فى جيش لجب

وتصفح مصعب من بقى حوله ، يمينا وشمالا ، فوقعت عينه على عروة ابن المغيرة بن شعبة ، فناداه : « يا عروة ! »

فلما دنا منه سأله :

ــ أخبرنى عن الحسين بن على ، كيف صنع بابائه النزول على حكم « ابن زياد » وعزمه على الحرب !؟ (١)

هنالك علم الناس أن مصعبا لن يريم حتى يقتل ...

وتقدم يواجه مصيره مستبسلا

فبعث اليه عبد الملك مع أخيه محمد بن مروان يقول : ان ابن عمك يعطيك الأمان ..

أجاب من فوره ، وطيف الحسين يملأ عينيه :

ــ ان مثلى لا ينصرف عن مثل هذا الموقف الا غالبا أو مغلوبا

ونادى محمد بن مروان « عيسى بن مصعب » وكان ملازما أباه :

ــ يا ابن أخى ، لا تقتل نفسك .. لك الأمان ..

وعقب مصعب ، دون أن ينظر الى ولده :

ــ قد آمنك عمك ، فامض اليه

قال عيسى : « لا تتحدث نساء قريش انى أسلمتك للقتل »

(١) تاريخ الطبرى : ١٨٤/٧

فنظر اليه أبوه مليا ثم قال : « فتقدم بين يدى ، أحتسبك »
فقاتل عيسى بين يدى أبيه حتى قتل (١)

وأثخن مصعب بالرمى ، ثم شد عليه زائدة بن قدامة فطعنه وهو يصيح : يا لثارات المختار !

ونزل اليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، فاحتز رأسه وحملها الى عبد الملك ..

قال عبد الملك وهو يطيل النظر الى وجه مصعب مضرجا بالدم :
« متى تغذو قريش مثلك ؟ » (٢)

ثم التفت الى من حوله فسألهم : « من أشجع الناس ؟ »

فذكروا اسمه ، وأسماء عدد من الأبطال الشجعان ، لكنه أسكتهم بقوله : « أشجع الناس مصعب بن الزبير ، جمع بين عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ... وولى العراقين ، ثم زحف الى الحرب فبذلت له الأمان والحباء والولاية والعفو عما خلص فى يده ، فأبى قبول ذلك ، واطرح كل ما كان مشغوفا به من ماله وأهله وراء ظهره ، وأقبل بسيفه قرما يقاتل ، ما بقى معه الا سبعة نفر ، حتى قتل كريما ... »

وتجاوبت الآفاق ، ما بين العراق والحجاز ، بصدى من قول عبيدالله ابن قيس الرقيات يرثى مصعبا ويذكر خذلان مَن فى العراق من بكر وتميم :

لقد أورث المِصرْين خـزيا وذلة
قتيـل بدير الجـاثليق مقيمُ
فمـا نصحت لله بكر بن وائل
ولا صبرت عنـد اللقـاء تميم
ولو كان بكريا تعطف حوله
كتـائب يغلى حميهـا ويدوم

(١) تاريخ الطبرى : ١٨٦/٧
(٢) تاريخ الطبرى : ١٨٧/٧

ولكنه ضـــاع الذمام ولم يكن
بهـــا مضرى يومذاك كريم (١)

الارملة المقهورة

وفى قصر الامارة بالكوفة ، وقفت أرملته سكينة بنت سيد الشهداء ، يكاد يتلفها القهر والغيظ

ولم يكن الحزن جديدا عليها ، فمن قبل مصعب بلت الحزن الأكبر يوم كربلاء ، ومصعب قد لقى مصرعه النبيل مختارا ، ومات الميتة التى تليق بفارس شهم كريم مثله ...

انما كان غيظها من غدر الذين خانوه ، هو الذى يفرى كبدها !

ويحهم ! ما أفدح الذى لقيت سكينة منهم ! غدروا بجدها الامام ، ثم أيتموها صغيرة ، ثم أرملوها شابة !

وانها مع ذلك لتتماسك حين وفد عليها المعزون من أهل الكوفة ، يسألونها الصبر الجميل على قدر مصابها الجليل ، حتى اذا فرغوا مما أرادوا أن يقولوه ، أدارت فيهم عينيها — وقد جف دمعهما — ثم قالت فى تؤدة :

« الله يعلم انى أبغضكم ! قتلتم جدى عليا وقتلتم أبى الحسين ، وزوجى مصعبا فبأى وجه تلقوننى ؟ أيتمتمونى صغيرة وأرملتمونى كبيرة » (٢)
وانصرفت ...

خرجت من الكوفة ، ومن العراق ، وما تحمل الأرض أشقى منها بالذى كان ، وما تظل السماء أدنى منها الى اليأس والزهد

***

هل ترك لها « مصعب » ذكرى حية من شخصه الراحل ؟

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٨٧/٧
وأنظر كلمة عبد الله بن الزبير فى مصعب لما بلغه نبأ مقتله فى : الطبرى ١٩٠/٧ وعيون الانباء ٢٤٠/٢
(٢) عيون الانباء : ٦١٢/٢

فى خبر بالأغانى ، انها ولدت من مصعب ابنة آية فى الحسن ، أراد مصعب أن يسميها ربرب ، لكن سكينة سمتها « الرباب » باسم أمها (١) . فلما قتل مصعب ، ولى أخوه عروة أمرها ، فزوجها ابنه عثمان بن عروة ، فماتت وهى صغيرة

ونقل صاحب الأغانى رواية عن سعيد بن صخر ، عن أمه سعيدة بنت عبدالله بن سالم ، ان السيدة سكينة لقيتها بين مكة ومنى ، فاستوقفتها لتريها بنتها من مصعب ، واذا هى قد أثقلتها بالحلى واللؤلؤ ، وقالت :

— ما ألبست الدر الا لتفضحه

ثم أتبعها أبو الفرج ، برواية أخرى عن شعيب بن صخر عن أمه سعدة بنت عبد الله ، ان سكينة أرتها بنتها من الحزامى ، وقد أثقلتها بالحلى وقالت : والله ما ألبستها اياه الا لتفضحه (٢)

وهكذا ، ما بين فقرة وأخرى ، صار :

سعيد بن صخر ، شعيب بن صخر

وصارت سعيدة بنت عبد الله بن سالم ، سعدة بنت عبيد الله . كما صارت بنت مصعب ، بنت الحزامى !

ولا مجال للاطمئنان الى خبر عبث به الرواة على هذا النحو ، لا سيما وليس فى مراجعنا الأخرى ما يشير الى انها ولدت من مصعب بنتا

وكان « المصعب الزبيرى » أولى بذكر هذه البنت فى (نسب قريش) لكنه لم يشر اليها ، وكذلك لم يشر اليها « الطبرى » ولا « ابن خلكان » ولا « ابن حزم » فى جمهرة الأنساب

ولكن « دائرة المعارف » ذكرت ان سكينة لما تزوجها مصعب « أنجبا من هذا الزواج ابنة سمتها سكينة باسم أمها ، وتزوجت هذه الفتاة من أخى مصعب ، وتوفيت فى سن مبكرة »

ولم تذكر الدائرة مرجعها فى هذا ، وأرجح أنها نقلته عن الأغانى ، مع تحريف فى النقل ، جعل بنت مصعب تتزوج من أخى مصعب ! ..

---

(١) نضيف ان ام مصعب كان اسمها كذلك الرباب : بنت أنيف بن عبيد ، من بنى جناب الكلبى (نسب قريش : ٢٣٦)

(٢) مثلها فى عيون الاخبار : ٢٥/٤ ولم يذكر فيه اسم بنت سكينة

عزلة لم تطل

ظنت ، وظن الناس من حولها ، أن ذلك آخر عهدها بدنياهم ، وأنها سوف تنطوى على يأسها فى عزلة تجتر ما طفحت به كأسها من أحزان وأشجان ، حتى تلحق بالأعزاء الراحلين ...

وانصرف عنها متتبعو الأخبار ، وفى حسابهم أنها فرغت من الدنيا ، فما عاد لديها ما يلتمس من الأخبار ، وشغلوا بتلك الأخرى ، عائشة بنت طلحة ، وقد نزعت عنها ثوب الحداد على مصعب ، فتقدم اليها خطاب منهم بشر بن مروان الذى بعث اليها « عمر بن عبيدالله بن معمر التيمى » (١) يخطبها له ، وهو يشفق أن تكون ناقمة عليه أخونه لعبد الملك قاتل مصعب ، فلما حدثها عمر برغبة بشر ، قالت :

ــ أما وجد بشر ، رسولا الى ابنة عمك غيرك ؟ فأين بك عن نفسك ؟

سألها فى لهفة : أو تفعلين ؟

أجابت ضاحكة : نعم

فتزوجها من ليلته ، وعاد المجتمع يتلقى من أخبار علاقتها الزوجية بعمر ، وأسرار حياتها الخاصة معه

أجل شغل رواة الأخبار وصائدو الأسرار بتتبع عائشة بنت طلحة مع زوجها الثالث عمر ، ويئسوا من التماس جديد عند « سكينة »

حتى فوجئوا بالأرملة الهاشمية الحسناء ، تخرج عن عزلتها وتقبل على الدنيا مرة ثانية ، بوجه ضحوك ومزاج مرح !

---

(١) أمير فارس . انظر (جمهرة انساب العرب : ١٣٠)
(٢) الاغانى : ١١/١٨٣ ١١/١٨٣ ومابعدها . ط دار الكتب

وقيل فيما قيل ، ان حيويتها الفياضة وشبابها الذى اكتمل وقتئذ ونضج ، قد غلبا عوامل اليأس ودواعى القنوط ، فلم تستطع — وهى أنثى فى أوج نضجها ووفرة ثرائها وعزة جمالها وشرف موضعها — أن تنزوى طويلا فى عزلة عن الدنيا والناس

لكنى أكاد أطمئن الى أنها فى هذا الدور الجديد من حياتها ، كانت منطوية على يأس فادح ، بلغ فى أعماقها أقصى مداه ، فصار الى سخرية مريرة ، هى التى احتكمت فى الطور الثانى من حياتها ، احتكاما بلغ من قوته وعنفه ، أن اشتبه بضده ، والتبس عند الأكثرين بالرغبة فى انتهاب مسرات الحياة بعد الذى ذاقته من مر أحزانها

وهنا ، لا بد لنا من وقفة متأنية نسبر فيها أعماق هذه السيدة الشريفة ، واليتيمة الأرملة ، قبل أن تلقانا فى حياتها الجديدة على ما تصورها لنا الاخبار والروايات ، مسرفة فى الاقبال على الدنيا بنفس متفتحة لم ينل منها حزن ولا ساورتها ذكرى المشاهد الأليمة التى مرت بها

أجل ، لابد من وقفة هنا متمهلة ، قبل أن تلقانا « سكينة » فى أخبارها تلك ، تملأ الأفق من حولها ضجيجا مرحا ، وتشارك فى الدنيا أعنف مشاركة ، وتخوض المجتمع طليقة متحررة

وقد تعجلت الرأى آنفا ، فقلت اننى أكاد أطمئن الى انها فى هذا الدور الجديد من حياتها كانت فى اقبالها على الدنيا منطوية على يأس . وليس ذلك لأنى أجردها من أهواء البشرية ، وهى حفيدة الرسول البشر الذى ألح فى تقرير بشريته والاعتراف بها ، لكنا حين نحتكم الى سنن الفطرة وطبيعة الانسان ، ننكر أن تلاقى سيدة مثل الذى لاقت بنت الحسين من فوادح المحن وأرزاء الأيام والليالى ، ثم تستطيع — بحال ما — أن تنسى كل الذى لقيت ، ويصفو لها العيش هنيئا غير كدر !

بل انه لما يشبه المحال عندنا ، أن تقوى أنثى — بالغة ما بلغت ارادة الحياة عندها — أن تنسلخ من ماضيها كله ، وما العهد به ببعيد ، وأن تنحى عنها أطياف من ملئوه فرحا وترحا ، لتبدأ صفحة جديدة لا ظل فيها

من ذلك الماضى ، ولا صلة لها بهمومه ومآسيه

وعلماء النفس قد اطمأنوا الى أن للنفس البشرية واعية تختزن كل ما يمر بها من أحداث ، وتحتفظ بها على تطاول العهد بها وبعد المدى ، وتظل تؤثر فى سلوكه مهما تقو ارادته على التخلص منها ، بل مهما يغلب على يقينه أن الزمان قد عفى على آثارها فتاهت فى غيابة النسيان ...

وما كان الذى لاقته بنت الحسين بالذى ينسى ، ولا كان الزمن قد تراخى به منذ شهدت المذبحة المروعة فى كربلاء فى مستهل عام ٦١ هـ ثم مصرع زوجهـا الحبيب النبيل ، مصعب بن الزبير ، بعد عشر سنوات ، وهو يتأسى بالحسين ويقول لابنته : ما ترك أبوك لابن حرة عذرا ..

فهل شذت سكينة على الطبيعة البشرية ، وخرجت على المألوف من الفطرة السوية ، بنسيانها كل ما كان ، واقبالها على الدنيا بنفس متفتحة لا يلم بها طيف عزيز رحل ، ولا تعبرها ذكرى معاودة للذى فات ؟

كلا ، لم تشذ سكينة ، وانما الأقرب الى الاحتمال أنها ملت كبريات المشاغل الى حد الزهد ، ويئست من دنياها الى حد الاغراق فى الاستهانة بها وعدم المبالاة !

وانها لمعذورة ، فمثل هذه الدنيا ــ كما بلتها سكينة ــ غير جديرة بأن يؤسى عليها ، بل انها لأهون على بنت الحسين من دمعة تسكب أو آهة تلفظ !

ضجيج فى الدار

وليس أدل على هوان الدنيا لديها بعد مصعب ، من الخبر اللافت الذى نقله صاحب الأغانى معللا به قبولها للزواج بعد تمنع ، قال (١) : « تنفست يوما بنانة ــ جارية سكينة ــ وتنهدت حتى كادت أضلاعها تنشق . فقالت لها سكينة : مالك ؟ ويلك ! قالت : أحب أن أرى فى الدار جلبة ــ تعنى العرس

(١) الاغانى : ١٦٢/١٤ ساسى

« فدعت سكينة مولى لها تثق به ، وقالت له : اذهب الى ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فقل له : ان الذى دفعناك عنه ، قد بدا لنا فيه . ائت أخوال رسول لله صلى الله عليه وسلم فاخطب سكينة »

وابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، من بنى الحارث بن زهرة بن كلاب (١)

وكان قد خطبها بعد مقتل مصعب ، فأنكرته وردته فى غير رفق ، وبعثت اليه قائلة :

ـ أبلغ من حمقك أن تبعث الى سكينة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تخطبها ؟

فأمسك ابراهيم عن ذلك ، حتى اذا جاءه رسولها أنها قد غيرت رأيها فيه ، أقبل والدنيا لا تسعه من فرحته ، فجمع نحو سبعين رجلا أو ثمانين من رجال زهرة وأعيان قريش ، واتجه بهم فى جمع حافل مشهود ، ساعيا الى على بن الحسين ، ليخطب اليه أخته سكينة .

وذاعت القصة فى المدينة والوفد لما يزل فى طريقه الى البيت الهاشمى ، فما كان خروج ابراهيم فى موكب كهذا عدته سبعون أو ثمانون رجلا ـ فيما أحصت الرواية ـ بالذى يمضى دون أن يلفت اليه الأنظار ويستثير الفضول . وعرف الناس أن ابراهيم ما جمع هذا الحشد الا لكى يلقى به زين العابدين خاطبا سكينة . وبلغت الشائعة دور بنى هاشم فاسترابوا فيها أول الأمر ، وشق عليهم أن يصدقوا أن يجرؤ ابراهيم على خطبة الشريفة الهاشمية وليس لها كفئا

فلما قيل لهم : بلى ، وانها لراضية به ! صاحوا فى غضب :

ـ هذه الحمقاء تريد أن تتزوج ابراهيم بن عبد الرحمن ؟

وتنادوا ، حتى اذا اجتمعوا قال قائلهم :

ـ لايخرجن منكم انسان الا ومعه عصا ! (٢)

وهناك عند بيت سكينة ، التقى الجمعان مغضبين ثائرين :

---

(١) نسب قريش : ٢٦٦

(٢) الاغانى : ١٦٢/١٤ ساسى

بنو هاشم وقد رأوا ابراهيم غير كفء لبنت الحسين

وبنو زهرة ، وقد أنكروا أن يهون ابراهيم عند بنى هاشم الى ذلك الحد ، وانه لمن صميم الزهريين ، آل آمنة بنت وهب ، أم الرسول صلى الله عليه وسلم !

وان أباه عبد الرحمن ، اصاحب الشورى عند الرسول ، وأحد العشرة الذين شهد لهم عليه الصلاة والسلام بالجنة (١)

وان أمه « أم كلثوم بنت عقبة الأموية القرشية » لمن المهاجرات المبايعات ، خرجت الى الرسول فى هدنة الحديبية ، فطلبها أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة ــ وكانا لا يزالان على الكفر ــ وقدما المدينة يستردانها كشرط الحديبية (٢) ، فقالت فى ضراعة :

ــ يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أتردنى الى الكفار ، فيستحلون حرامى ويفتنونى عن دينى ؟

وأنزل الله عز وجل فيها :

« يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بايمانهن ، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن » (٣)

ولم يردها الرسول الى الكفار ...

خاطب مردود

وتشاح أفراد الفريقين ، وتضاربوا ، فأصيب منهم يومئذ أكثر من مائة انسان ، قبل أن ينفض العراك ...

وصاح الهاشميون : أين سكينة ؟

فأنبئوا بموضعها ، وانطلقوا الى حيث كانت تتلقى أنباء المعركة التى

(١) ابن حجر : الاصابة ــ رقم ١٥٧١ ونسب قريش ٢٦٥

(٢) كان مقتضى هذا الشرط على النبى لقريش : ان من جاءنا منكم رددناه اليكم . وارجع الى تاريخ الطبرى ، والاصابة ، ونسب قريش ١٤٥ ، ٢٦٦

(٣) سورة الممتحنة اية « ١٠ »

شبتها ، فى فضول المتفرج وسخرية العابث !

صاحوا بها : أبلغ بك الأمر أن تصنعى هذا ؟

فالتفتت سكينة الى مولاتها بنانة ، وسألتها ، وما تفارق الابتسامة فمها : « أى بنانة ، أرأيت فى الدار جلبة ؟ »

أجابت وهى لا تكاد تجد صوتها من خوف وذعر :

— أى والله ياسيدتى ، الا أنها شديدة ! (٢)

وأبت « سكينة » بعد ذلك أن تتزوج من ابراهيم ، حين ترك لها الخيار فى الأمر

على أن هناك رواية نقلتها دائرة المعارف عن طبقات ابن سعد — تقول انها عاشت مع ابراهيم الزهرى ثلاثة أشهر ، ثم طلقت منه بأمر هشام بن عبد الملك .

وقد عقبت عليها الدائرة بقولها : « وهذا شىء بعيد الاحتمال » دون أن تحدد الشىء المشار اليه ، أو تذكر سببا يبعده عن الاحتمال . وأغلب الظن أن هذا هو طلاقها من ابراهيم بأمر هشام بن عبد الملك ! وانه فعلا لشىء بعيد الاحتمال ان لم يكن أقرب الى المحال ! ذلك لأن هشاما ولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ وتوفى سنة ١٢٥ هـ عن ٥٤ سنة (٣) ، وقيل كان ابن ٥٥ سنة أو ٥٢ سنة وهما روايتان فى الطبرى

أى أنه لم يكن قد ولد بعد حين قتل مصعب وترملت سكينة ، اذا أخذنا بقول من قال بموته سنة ١٢٥ عن ٥٢ سنة

أو كان رضيعا فى السنة الأولى من عمره ، اذا أخذنا بأقصى الآجال فى عمره ، أى ٥٥ سنة

فأنى ، وكيف ، تدخل فى مسألة زواج سكينة من ابراهيم ، بعد أن قتل عنها مصعب !؟

ونعود الى حكاية خطبة ابراهيم لسكينة بايعاز منهـا ، ثم رفضهـا الزواج منه بعد أن كان ما كان من عراك بين بنى هاشم وبنى زهرة ،

---

(٢) الاغانى : ١٦٢/١٤ ساسى

(٣) تاريخ الطبرى : ٢٨٣/٨ ، ٢٨٨ وانظر معه شذرات الذهب : ١٦٣/١

فنسأل : « هل حدث هذا حقا ؟ .. »

لست أستبعده ، ولكن بفرض انه لم يحدث ، فما من شك فى ان الذين اخترعوا هــذه القصة ، قد أغراهم بها ما عرفوا من ميــل سكينة الى الدعابة ، وانها لدعابة قد يرى ناس فيها لونا من المرح ، على حين نراها دعابة مرة قاسية ، فهذه الشريفة الحسناء ، يخطبها من لا نراه كفئا لها ، فترده بعبارة تنطق بزهوها واعتزازها بنسبها العالى ، ثم لا تكاد تسمع تنهد « بنــانة » واشتياقها الى جلبــة الفرح ، وضــيقها بوجوم البيت وســكونه ، حتى تثور فى أعمــاقها ذكريات ما لقى آلها الأكرمون من اضطهاد بشع ، وحتى تستحضر مصارع الشــهداء من رجالها ، ومرأى أشلائهم مبعثرة على ساحة كربلاء ، لا يصد عنها سبع ولا وحش ! ؟

ماذا صنع النسب الطاهر العالى للزهراء وقد ماتت كمدا ، مضــيعة الحق ، ولم يمض على وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم غير أشهر معدودات ! ؟

ماذا صنع النسب الشريف للحسن وقــد لقى حتفــه مســموما ؟ .. وللحسين وبنيه واخوته وبنى اخونه وبنى عمه ، وقد قتلوا جميعا فى يوم واحد ، بسيوف قوم يدينون بدين محمد ، ويشهدون انه رسول الله ؟..

وماذا صنعت المروءة لزوجها مصعب ، وقد خذله جنده ، وباعه أنصاره بثمن بخس ، دراهم معدودات ، ووعود عرقوبية كاذبة ؟ ..

فهل من عجب أن تهزأ سكينة ، بنت الشهيد ، وأرملة صريع الغدر ، بهذا المجتمع المنافق ، وتسخر بما تعارف عليه من قيم يقدســها باللفظ ويخونها بالفعــل ؟ .. وأى شىء هو أبلغ فى الهزء بالنفاق الاجتماعى ، من أن تغرى بخطبتها من ردته بالأمس خائبا مهانا ؟ .. أى شىء هو أبلغ فى السخرية بالعرف السائد فى مجتمع الأشراف من قريش ، من أن ترجع سكينة عن قرارها الأول ، لمجرد ارضاء رغبة عارضة من جاريتها «بنانة» فى أن ترى فى البيت جلبة عرس ؟ ! .. ثم تكون ، بنت الحسين وحفيدة الزهراء ، هى هى التى تبعث مولى لها الى ابراهيم بن عبــد الرحمن ،

لتعلنــه بما بدا لها فى قبوله زوجــا ، وتتنــازل فتدعوه الى أن يمضى فيخطبها ؟ ! ..

وجلست تتفرج على المشهد الذى ألفته ورسمت خطته وعينت مسرحه واختارت أشخاصه ! ..

وطاب لها أن تصغى الى ضجيج المعركة الصغيرة بين الفريقين من آلها وآل ابراهيم الزهرى ، والتى تمخضت عن مائة مشجوج ، وعن ضحية أخرى فوق المائة ، أعنى الخاطب المسكين الذى باء بالخسر والهوان ؟ ! ..

وما تكون تلك الضــحايا ، أمام عشرات الألوف من المسلمين الذين قتلوا فى معركة الفتنة الكبرى ، فى مواقع الجمل ، وصفين ، وكربلاء ، ومعارك التوابين والخوارج ، وصراع الأمويين ضد الهاشميين والزبيريين من بعدهم ؟ ..

بل ما تكون هذه الضحايا أمام مصرع الحسين وحده ، رضى الله عنه ؟ !

وأى شىء هذه الضجة ، بالقياس الى ضجة كربلاء ، أو الحرة ، أو موقعة « مسكن » التى قتل فيها مصعب بن الزبير ، فتى قريش ؟ ..

الله .. الله ! .. لقد طابت الحياة لقريش بعد كل هذا الذى كان ، فلا ضير عليهم فى أن يحتملوا مائة مشجوج ، نظير التفرج على مشهد ساخر فكه طريف ، من تأليف واخراج بنت الامام الشــهيد ، أرملة مصعب ابن الزبير ! ..

أو لا ، فلتضف هذه الخدوش الهينة ، الى رصيدها الضخم من صرعى الفتنة ، وضحايا البغى والجشع ، والغدر ، والنفاق ...

مع الأصبغ المروانى

وتتبع سكينة اذ تمضى بها الحياة فى الخضم الكبير ، بعد أن سكنت الضجة التى ثارت بين بنى هاشم وبنى زهرة ، فاذا معالم الطريق تغمض أمامنا وتتوه ، حتى ما ندرى أى طريق سلكت بنت الحسين ، بعد الذى كان ...

موتى يبعثون

ثمة خبر يقول : ان « عبد الله بن مروان خطبها بعد مصعب ، فقالت أمها : لا والله لا تتزوجه أبدا وقد قتل ابن أخى ــ تعنى مصعبا » (١)

ولا حاجة بنا الى توهين الخبر بأن عبد الله لم يقتل مصعبا ، وبأن الأخوة المدعاة بين الرباب والزبير أبى مصعب فى قول الرباب « وقد قتل ابن أخى » لا تعدو التقاء فى الجد الخامس لمصعب من ناحية أمه : الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد بن حصن بن كعب بن عليم بن جناب الكلبى (٢)

والجد الرابع لأم سكينة من ناحية الأب : امرىء القيس بن عدى بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم (٣)

أجل ، لا حاجة بنا الى توهين الخبر بمثل هذا أو نحوه ، بل يكفى أن نقول ان الرباب ، أم سكينة ، ماتت فى أوائل سنة ٦٣ هـ حزنا على زوجها الحسين ، بعد عام واحد من مصرعه فى كربلاء (٤) ، وغير معقول أن تبعث من قبرها لتظهر على مسرح الأحداث بعد وفاتها بنحو عشر سنين ، فترفض أن تتزوج بنتها سكينة ، بعد مصعب ، من عبد الله بن مروان !..

---

(١) الاغانى : ١٦٢/١٤ ساسى
(٢) نسب قريش : ٢٣٦ ــ وجمهرة انساب العرب : ٤٢٧
(٣) نسب قريش : ٥٩ ــ وجمهرة انساب العرب : ٤٢٧
(٤) ابن الاثير : الكامل ٧٣/٤

زواج لم يتم

ونفرغ كذلك على عجل من زواج آخر لم يتم ! ..

ذلك هو زواجها بالاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، أخى عمر بن عبد العزيز

قيل انه خطبها ، وأغلى لها المهر ، فقبلت بعد تردد وتمنع

كان وقتئذ واليا على مصر ، لعمه عبد الملك ، فلما استدعاها ، أبدت خوفها من جو مصر ، فبنى لها مدينة سماها « الاصبغ » وأرسل اليها بالمدينة انه قد هيأ لها أطيب مقام

وانتظر الرد ، فجاءه رد ، لكن ليس من سكينة ، وانما من عمه عبد الملك الذى كتب اليه يخيره بين احدى اثنتين : ولاية مصر ، أو الزواج من بنت الحسين (١)

فاستجاب الاصبغ لرغبة عمه عبد الملك ، وأرسل اليه بطلاقها ، قبل أن يدخل بها

أما لماذا كره عبد الملك زواج ابن أخيه من بنت الحسين ، فتقول رواية : « انه نفس عليه بها »

وتقول أخرى : انه غضب لكثرة ما أنفق الاصبغ عليها من مال ، فقال : ما نزوجها أخانا حتى نزوجها مالنا

والروايتان ، كلتاهما ، فى « الأغانى » ، واذا كان لنا أن نختار فالأولى عندنا أولى

وبقى الاصبغ فى مصر محزونا ...

وبقيت سكينة حيث هى فى المدينة ، وقد متعها الاصبغ حين طلقها ، بعشرين ألف دينار

أما متى تمت هذه الخطبة ، فالقصة تشير الى أنها حدثت والاصبغ وال على مصر لعبد الملك بن مروان ، أى فى سنة ٧٥ هـ ...

ومن هنا ، أتينا بها ــ فى سياق الحديث عن حياة سكينة الزوجية ــ

(١) الاغانى : ١٤/١٦٢

بعد ترملها من مصعب

ولم نلتفت الى ما نقلته دائرة المعارف ، من زواج الاصبغ بها ، بعد من سمته الزبير — وصحته : زيد — بن عمرو بن عثمان بن عفان ، الذى أجمع ابن خلكان فى الوفيات . وابن العماد فى الشذرات ، واحدى روايات الأغانى ، على أنه طلقها فى خلافة سليمان بن عبد الملك ، وقد كانت خلافة سليمان من سنة ٩٦ الى سنة ٩٩ هـ ، على حين كانت الخطبة سنة ٧٥ ، فى عهد عبد الملك ، والاصبغ وال على مصر (١)

كذلك لم نلتفت الى روايتين فى الأغانى ، وضعتا خطبة الاصبغ اياها قبل زواجها من مصعب الذى قتل عام ٧١ هـ !

أما غياب الحديث عن هذه الخطبة فى (نسب قريش) وفى (الجمهرة) فمن السهل أن نعلله بعدم اتمام الزواج

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٠٢/٧ ، ١٢٦

مع عبد الله بن عثمان الحزامى

هدنة مع الايام

فمن بعد الاصبغ ؟ ..

لعل عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، هو أول من خطبها ، وتم زواجهما ، بعد أن ترملت من مصعب

على هذا اتفقت رواية « نسب قريش » التى نصت على أنه الذى خلف عليها بعد مصعب (١)

وكذلك ابن خلكان فى الوفيات

وابن العماد الحنبلى فى الشذرات

وهى أيضا رواية ابن سعد فى الطبقات وقد نقلتها عنه «دائرة المعارف» وان كانت أضافت الى اسم عبد الله بن عثمان ، انه ابن أخى مصعب

والصحيح انه ابن أخته ، لأمه وأبيه ، رملة بنت الزبير بن العوام (٢)

أما أبوه عثمان ، فكان من سادات قريش وأشرافها ، وكان مع عبد الله ابن الزبير بمكة ، فقتل فى الحصار الأول — الذى قام به جيش يزيد قبل موته سنة ٦٥ هـ — وله يقول أبو دهبل الجمحى :

ونعم ابن أخت القوم « عثمان » فى الوغى
اذا الحرب أبدت نابها وهى تكلح
هو التارك المال النفيس حمية
وللموت من بعد المعيشة أروح

(١) نسب قريش : ٢٣٣ وانظر جمهرة انساب العرب : ١١٢
(٢) نسب قريش : ٢٣٣ وانظر جمهرة أنساب العرب : ١١٢

وجـــاد بنفس لا يجـــاد بمثلهـــا
لهـا ، لو أقرت غزية ، متزحزح (١)

ورحب بنو هاشم بالزواج هذه المرة ، ورددت مجامع قريش ، قصيدة أخرى لأبى دهبل الجمحى ، بارك فيها هذه الصلة بين سليلة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين حفيد الزبير بن العوام ، وسليل حكيم بن خويلد الأسـدى ، ابن أخى خديجة أم المؤمنين . وفى هـذه القصيدة يقول الجمحى :

قضت وطـرا من أهـل مكة ناقتى
سـوى أملى فى المـاجد ابن حزام
تمطت به بيضاء ، فرع ، نجيبة
هجـان ، وبعض الوالـدات غرام
جميـــــل المحيا من قريش كأنه
هـلال بـدا من سـدفـة وظـلام
فأكرم بنسـل منك بين محمـــد
وبين على ، فاســـمعن كلامى
وبـين حكيـم والزبـير فلن ترى
لهم شبهـا فى منجـد وتهـام (٢)

زواج مثمر

ويبدو أن الحياة قد اطمأنت ببنت الحسين فى كنف هذا الزوج الماجد الكريم ، وأمهلها الزمن بضع سنين ، ذاقت خلالها طعم الاستقرار والدعة ، وعكفت على تربية صغارها الذين كانوا ثمرة هـذا الزواج المبارك بين فرعين من أعز فروع قريش ، وهم : (٣)

(١) نسب قريش : ٢٢٣ — وارجع الى شعر الجمحى فى مجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٩١٠
(٣) نسب قريش : ٢٢٣
والابيات فى (ديوان أبى دهبل الجمحى) مع بعض اختلاف فى الترتيب
(٣) نسب قريش : ٢٢٣

عثمان بن عبد الله ، وقد لقبه أبوه « قرينا » وفى ولده كانت البقية من نسل بنت الحسين

وحكيم بن عبد الله

وربيحة بنت عبد الله ، التى تزوجها العباس أكبر أبناء الوليد بن عبد الملك ، وصاحب الغزوات الظافرة المشهورة فى بلاد الروم (١)

ولعل ربيحة هذه ، هى الفتاة التى كانت أمها سكينة تلبسها الدر لتفضحه ، والتى خلطت الرواية فنسبتها الى مصعب بن الزبير

***

وربما حاولت سكينة فى تلك الفترة من حياتها ، أن تسدل على أحزان صباها ستارا من التشاغل والتناسى ، وعاد الاخباريون فانصرفوا عنها ، اذ هى مطمئنة فى حياتها الزوجية ، بعيدة عن أضواء المجتمع

ثم مات زوجها عبد الله بن عثمان .. وترملت مرة أخرى ...

ويبدو أن وقع المصاب كان شديدا عليها ، وانه نكأ فى أعماقها الجرح القديم الذى ما التأم مرة الا ليعود فيدمى من جديد ...

ولعلها فى تلك الفترة ، سعت الى البيت العتيق فى حجتها المشهورة التى التقت فيها بضرتها السابقة : عائشة بنت طلحة ...

وأبى متصيدو الأخبار أن يفلتوا هذه الفرصة ، بل أسرعوا فجاءوا بغادتى قريش الحسناوين ، فى مشهد من مشاهد التنافس والتحدى ...

وان لم يكن « مصعب بن الزبير » هو موضوع تنافسهما فى هذا المشهد الذى وصفه الراوى فقال : دخلت عائشة بنت طلحة على الوليد ابن عبد الملك وهو بمكة فقالت : يا أمير المؤمنين ، مر لى بأعوان . فضم اليها قوما يكونون معها فحجت ، ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل ، وحجت فى ذلك العام أيضا سكينة بنت الحسين رضى الله عنه ، فقال حادى عائشة :

عائش يا ذات البغال الستين … لازلت ماعشت ، كذا تحجين

(١) تاريخ الطبرى : حوادث السنوات ٩٣ : ٩٥ هـ

فشق ذلك على سكينة ، ورد حاديها :

عائش هــذه ضرة تشــكوك   لولا أبوها ما اهتــدى أبوك

« فأمرت عائشة حاديها أن يكف فكف » (١)

ونرجح أن ذلك قد كان فى سنة ٩١ هـ ، لأنها السنة التى حج بالناس فيها ، الوليد بن عبد الملك (٢)

---

(١) الاغانى : ١٨٨/١١ دار الكتب . وانظر الخبر وتعليق الامام السبكى عليه فى (طبقات الشافعية الكبرى ١٦٦/١ ط مصر)

(٢) ص تاريخ الطبرى : ٨١/٨

مع زيد بن عمر العثمانى

شروط عجيبة

رجعت « سكينة » الى المدينة فى أخريات ذى الحجة من ذلك العام (٩١ هـ) أرملة كهلة ، ينزف الجرح فى أعماقها دما ، وقد طفح كأسها بالشجن المر والأسى الفادح ...

وجاء خاطب جديد ، ليكشف عن ضجرها الذى جاوز المدى ! ..

جاء زيد بن عمر بن عثمان بن عفان ، (١) يسألها أن تقبله زوجا على أى شرط تشاء ...

ولم تشأ أن يتم هذا الزواج على مألوف عادة القوم ، بل اشتطت فى شروط لها ، ما نراها ــ لو صح الخبر ــ الا مظهر يأس عميق ، وان بدت فى شكل دعابة ساخرة

كانت شروطها ثلاثة :

أولها : ألا يمس امرأة سواها ..

والثانى : ألا يحول بينها وبين شىء من ماله ..

والثالث : ألا يمنعها مخرجا تريده (٢)

فان أخل بأحد هذه الشروط فهى منه خلية ! ..

وقد يبدو الشرط الأول غريبا من سكينة حفيدة نبى الاسلام الذى أباح تعدد الزوجات . وكان تعدد الزوجات فى بيئتها هو العرف المتبع والشائع ، وقد تزوجت سكينة ــ وهى فى ربيعها العشرين ــ من مصعب ،

---

(١) فى اسم أبى زيد وهم ، لعل سببه أن عثمان بن عفان له ولدان : عمر ، وعمرو . وقد ورد اسم زيد بن عمرو ، فى الوفيات والشذرات والاغانى والدائرة ، وكذلك ورد مرة فى نسب قريش (٥٩) على أنه عاد فذكر زيدا بين ولد عمر . وهو فى الجمهرة أيضا ابن عمر ، وقد رجحناه بعد طول مقابلة للروايات ، وتتبع لسياق النسب لولد عثمان

(٢) فى الاغانى (١٤/١٦٣) شروط أخرى بجانب هذه التى ذكرناها

وعنده عائشة بنت طلحة ، وفاطمة بنت عبد الله الأسدى وأمهات أولاد شتى (١)

ثم تأتى ، وقد جاوزت ــ الأربعين من عمرها ــ فتشترط على زيد العثمانى ألا يمس امرأة سواها ...

لكن الشرط ، على ما يبدو من غرابته ، جائز شرعا . فللمرأة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها .

والشرط الثانى أعجب : فزيد هذا « أبخل قرشى » فيما قالوا ! ، وقد رووا فى بخله أعاجيب يكاد المرء لغرابتها أن يتهمها بالوضع ، ولكنها على فرض وضعها ، ذات دلالة على رأى القوم فى زيد ، وفى بخله (٢)

وتأتى سكينة ، فتشترط على زيد هــذا الذى كان يأبى أن يشركه ضيف فى طعام ، ألا يحول بينها وبين شىء من ماله ، والا فهى منه خلية !..

وليس شرطها الثالث بأقل من هذين غرابة ، فما ألف المجتمع القرشى ، فى جاهلية أو اسلام ، أن تشترط زوجة على زوجهــا ألا يمنعها مخرجا تريده ! ..

أى مخرج ؟ ..

هكذا على التنكير والتعميم ، دون تحديد أو تعيين ؟ ..

وزيد حفيد خليفة ، ومن بيت هو فى الصميم من قريش (٣)

وسكينة ، أخت الامام ، وبنت الامام ، وسليلة النبوة ! ..

فماذا تركت لزوجها بعد كل هاتيك الشروط ؟ .

لو أنها اشترطت على زوجها أن تكون العصمة بيدها ، ثم تحللت من عقد النكاح ، لسبب أو لآخر ــ أو حتى لغير سبب ــ لما خرجت فى ذلك على عرف القوم وتقليد الجماعة ، أما أن تنص صراحة على انه « ان مس امرأة سواها ، أو حال بينها وبين شىء ــ أى شىء ! ــ من ماله ، أو منعها مخرجا ــ أى مخرج ! ــ تريده ، فهى منه خليــة » فذلك ــ ان

(١) نسب قريش : ٢٤٩ ــ وجمهرة انساب العرب : ١١٢
(٢) الاغانى : ١٦٤/١٤
(٣) انظر نسبه فى « نسب قريش : ١٢٠ » و « جمهرة انساب العرب : ٧٨ »

صح ــ هو الهزء بالمجتمع القرشى الذى أنكرت سكينة من حاله ما أنكرت ، وضاقت بما شاع فيه من غدر ونفاق ، وقتل النفس ــ وعشرات الألوف منها ــ التى حرم الله الا بالحق ! ..

ألا ما أفدح الأثر الذى تركته محنة آل البيت فى نفس هذه الأنثى الذكية الشاعرة بذاتها ! ..

ويقال انها مرحة عابثة ، وقد نسيت كل الذى كان ، وأقبلت تستبدل زوجا بزوج ، وكأن لم يعد يشغلها سوى متاع الدنيا ؟ ! ..

كلا ...

ان الجرح كان من عمق الغور بحيث لايرى من قرب ، ولو كان سطحيا لما خفى ! ..

وهذه هى ، بعد أن احتست الأتراح والأشجان كأسا اثر كأس ، تأبى أن تعترف بأعراف وتقاليد ، لمجتمع يأكل بعضه بعضا ، ويلغ فى دماء آل محمد ، ولما يبل قميصه عليه الصلاة والسلام

لقد صارت هذه الأعراف والتقاليد عند الهاشمية الحسناء ، عملة زائفة لا تساوى مجرد الالتفات اليها ! ..

فمن شاء أن يتزوجها ، وليكن زيد بن عمر بن عثمان بن عفان ، فليقبل أن تفرض عليه من الشروط ما لم تفرضه أنثى على زوج ! ..

ليقبل أن ينزل لها عن حريته ولو كان سيدا وابن سيد وسليل سادة ..

وعن ماله ، ولو كان أبخل قرشى ..

وعن مهابته ، ولو كان ابن عم الخليفة ، وحفيد ذى النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان ! ..

ووجم المجتمع القرشى وهو يرى زيدا يقبل ، ويتزوج سكينة على شروطها ! ..

أبخل قرشى

ووجد الاخباريون فى زواج « أبخل قرشى » من الهاشمية الكريمة ، المتذلة للمال ، مادة سمر ، ونوادر ، وأقاصيص ...

فهم يحكون من نوادر اهانتها للمال ، انها رؤيت مرة ترمى الجمــار ، فسقطت من يدها الحصاة السابعة ، فنزعت خاتما ثمينا من اصبعها ورمت به ، بدل الحصاة (١)

ويحكون من نوادر بخل زيد ، انه خرج حاجا وخرجت معه سكينة ومعها خمسة أجمال محملة بأصــناف الطعام ، فكلما بلغ الركب منزلا ، أمرت السيدة الهاشمية بالطعــام وأعدت الأطبــاق ، فجاء بعض القوم يسلمون على « زيد » فوضع يده على خاصرته فجأة وصاح متوجعا : « أوه خاصرتى !.. باسم الله ارفعوا الطعام وهاتوا الترياق والماء الحار..» فإذا انصرفوا ، طلب الطعام ...

وحدث مرة ، وهم فى السيالة ، أن جاء أغيلمة الأنصار للتحية ، والطعام معد . فأمر زيد برفعه متعللا بالألم الطارىء !

يقول أشعب ، وكان يومئذ فى الركب :

« ولبثنا حتى انصرفوا ، ودخلنا ، وقد هلكت جوعا فلم آكل الا مما اشتريته من الســوق من مائة دينار أعطتنى اياها السيدة سكينة ، فلما كان الغد أصبحت وبى من الجوع ما الله به عليم ، ودعا زيد بالطعام ، فأمر باسخانه ، وجاءته مشيخة من قريش يسلمون عليه ، فلمــا رآهم اعتل بخاصرته ودعا بالترياق ، والماء الحار ، ورفع الطعام . فلما ذهبوا ، أمر باعادته فجيء به وقد برد . فقال لى : يا أشعب ، هل الى اسخان هذا الدجاج سبيل ؟.. فقلت له : اخبرنى عن دجاجك هذا ، أهو من آل فرعون فهو يعرض على النار غدوا وعشيا ؟ » (٢)

تجربة فاشلة

ولم يكن من المنتظر ولا المرجو ، أن تسعد سكينة ــ بعد أن أثقلتها أعباء الأيام والليــالى ، وأثخنتها الجراح ــ بزواج كهذا ، بل لعلهــا لم تكن راغبة فيه حريصة عليه ، وانما هى تجربة جديدة ، لم تر بأســا

(١) الاغانى : ١٤/١٦٥
(٢) الاغانى : ١٤/١٦٥ ساسى

فى معاناتها ، وليكن بعد ذلك ما يكون ...

والأخبار عن حياتها الزوجية مع زيد العثمانى ، تصورها قلقة منغصة ، وقد كثرت بينهما المغاضبة وطالت فى احدى المرات حتى بلغت سبعة أشهر . والظاهر أن زيدا تململ من القيود التى ألجمته بها زوجته ، فحاول مرة أن يتحلل من أحدها .. حدث أشعب : « حج سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فاستأذن زيد بن عمر سكينة فى الخروج معه ، وأعلمها أنها أول سنة حج فيها الخليفة وانه لايمكن التخلف عن الحج معه . وكانت لزيد ضيعة قرب المدينة يقال لها العرج ، وله فيها جوار حسان . فأعلمته سكينة أنها لا تأذن له الا أن يخرج أشعب معه فيكون عينا لها عليه ، ومانعا له من العدول الى العرج والاتصال بجواريه فى روحته أو رجعته » . فقبل زيد .. وحج سليمان وانصرف من حجه ولم يسلك طريق المدينة ، وانصرف زيد يريد المدينة ، فنزل على ماء لبنى عامر بن صعصعة ، ودعا أشعب ، وقدم اليه صرة فيها ٤٠٠ دينار — وكان سليمان قد أجزل لزيد العطاء — وأعلمه انه ليس بينه وبين العرج الا أميال ، وان الدنانير له اذا هو أذن له فى المسير الى العرج ولقاء جواريه هنالك ، ثم يوافيه بغلس وقت ارتحال الناس ..

فأذن له أشعب ، وأقسم له انه سوف يحلف لسيدته بالايمان المحرجة ، أن زيدا ما صار الى العرج ولا اتخذ ارية لنفسه منذ فارق سكينة الى أن رجع اليها ...

وآب الحجيج الى المدينة ، فابتدرت سكينة زوجها تسأله عن خبره . فقال وهو ينظر الى أشعب :

— يا بنت رسول الله ، وما سؤالك اياى ولم يزل ثقتك معى ، وهو أمين علىّ ، فسليه عن خبرى يصدقك ...

فسألت أشعب ، فأخبرها انه لم ينكر عليه شيئا ولم يمكنه من اتخاذ جارية ، ولم يطلق له الاجتياز الى العرج

(١) الاغانى : ١٦٢/١٤ ساسى

فلما استحلفته على ذلك ، مضى يحلف لها بالايمان المحرجة ، حتى جزع « زيد » نفسه ، فوثب دونه ووقف بين يدى سكينة يقول فى ضراعة التائب وتوسل المقر بذنبه :

ــ والله يا بنت رسول الله لقد كذبك العلج !.. جزت بالعرج فأقمت هناك يوما وليلة ، واتصلت بعدة من جوارى ، وهأنا ذا تائب الى الله مما كان منى ، وقد جعلت توبتى منهن ، أن أحملهن اليك عشية هـذا اليوم ، فبيعهن واطلاقهن اليك ، وأنت أعلم بما ترين فى العبد السوء ــ يعنى أشعب »

***

أية زوجية هذه التى يصور لنا الرواة فيها زيد بن عمر بن عثمان ، لا يتحرك ــ ولو للحج ، ومع أمير المؤمنين ــ الا أن تأذن له زوجته ، وبشرط أن يرافقه تابع من قبلها يكون عينا لها عليه ؟ ! ..

ثم تصوره وهو يحتال للعدول الى ضيعته وجواريه ، فلا يجد بدا الا أن يذل نفسه بالاستئذان من مولى سكينة ، وأن يبذل غالى ماله بدفع أربعمائة دينار لأشعب ثمنا لسكوته وتستره عليه ، بايمان كاذبة ؟

ثم هذا الموقف الذى وقفه بين يدى زوجته ــ كنص عبارة الراوى ــ ضارعا مقرًّا بذنبه ، تائبا الى الله ، وجاعلا كفارة الذنب ، جواريه جميعا يحضرهن الى سكينة ، ويدع لها حرية التصرف فيهن بيعا وعتقا ؟ ! ..

وتضيف الحكاية أن « سكينة » لم تقبل توبة زوجها « زيد » ، ولا توبة عبد السوء « أشعب » ...

أما أشعب فجعلته مثلة : أمرته بأن يحضر الدنانير الأربعمائة التى تقاضاها ثمنا لخيانة ثقتها فيه ، وبعثت من ابتاع لها خشبا بثلاثمائة دينار ، واستدعت نجارين صنعوا من هـذا الخشب صـندوق تفريخ للبيض ، ودفعت لهم أجرهم من المائة دينـار الباقية ، بعـد أن اشترت ببعضها بيضا وتبنا ! ..

وأقسمت بحق جـدها ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يحضن أشعب

هذا البيض حتى يفقس ...

وفعل المسكين : رقد على البيض حاضنا ، حتى خرجت الفراريج فى ساحة بيت سكينة ، فكانت تنسبها اليه وتقول : بنات أشعب : ؟ .. (١)

وأما زيد بن عمر بن عثمان ، فذهبت تستعدى عليه عمر بن عبد العزيز . والى المدينة لسليمان بن عبد الملك ...

تقول الرواية : فبعث عمر الى زيد فأحضره ، وأمر « ابن أبى الجهم الفقيه » (٢) أن ينظر بينهما . وندب رجلين ليشهدا قضاءه

وجاء زيد وحده الى مجلس الحكم

أما سكينة فجاءت فى موكب من جواريها يحملن الوسائد والفرش . فلما أذن لها ابن أبى الجهم بالدخول وحدها ، أبت أن تدخل الا ومعها ولائدها ، ثم أمرتهن ففرشن لها وسادة ، وهيأن متكئا ، وجلست ، وزيد منكمش قد لصق بمقعد القاضى « حتى كاد يدخل فى جوفه خوفا منها »

قال ابن أبى الجهم : يا ابنة الحسين ، ان الله يحب القصد فى كل شىء !

فردت عليه : وما أنكرت منى ؟.. وانى والله واياك كالذى يرى الشعرة فى عين واحد ، ولا يرى الخشبة فى عين صاحبه

قال وقد أثاره ردها : أما والله لو لم تكونى سكينة بنت الحسين ، لسطوت بك !..

وطال بينهما الأخذ والرد ، حتى قال أحد شاهدى المجلس :

ـــ يا أبا بكر ، ما لهذا جئنا ، ولا بهذا أمرنا ، فانظر القضية ولا تتشاتم ..

واذ ذاك التفتت سكينة الى مولاة لها وسألتها :

من هذا الرجل ؟ ..

قيل : هو أبو بكر بن عبد الله بن أبى الجهم ..

فصاحت به : لا أراك ههنا وأنا أشتم بحضرتك ! ..

---

(١) الاغانى : ١٦٠/١٤ ، ١٦١ ساسى

(٢) ابوبكر بن عبد الله بن أبى الجهم . انظره فى «جمهرة انساب العرب ص ١٤٧ »

ثم هتفت : يا لرجال هاشم وقريش ! ..

فاعتذر لها من بالمجلس ..

وتكلم زيد ، فأبدى خضوعه لها ..

قالت : ما أعرفنى بك يا زيد !.. والله لا ترانى أبدا !.. أترالة تمكث مع جواريك ثم أعود اليك ! ..

ونطق القاضى بحكمه : ان جاءت سكينة ببينة على دعواها ، والا فاليمين على زيد ...

فكان جوابها أن التفتت الى زيد وقالت :

ـــ يا أبا عثمان ، تزود منى بنظرة ، فلن ترانى والله بعد الليلة أبدا ...

والقاضى صامت لايتكلم ...

وانفض المجلس ، وقد أدبر النهار وجاء الليل ...

وكانت ليلة شاتية ، غائبة النجم ...

قال أبو بكر بن عبد الله ، يتم القصة :

« وخرجنا فجئنا عمر بن عبد العزيز ، فألفيناه ينتظرنا فى وسط الدار، فى تلك الليلة الشاتية ، فسألنا عن الخبر ، فأخبرناه ، فجعل يضحك حتى أمسك بطنه !.. ثم دعا زيدا من غد ، فأحلفه ورد سكينة عليه » (١)

***

ولكنها رجعة لم تطل ...

عادت « ســـكينة » تشق على زيد ، وترهقه من أمره عسرا ، حتى « كانت ـــ فيما تحدث الأخبار ـــ تقول له : ياعثمانى ، اخرج بنا الى مكة ، فاذا خرج بها فسارت يوما أو يومين ، قالت : ارجع بنـــا الى المدينة ، فاذا رجع يومه ذلك قالت : اخرج بنا الى مكة ! » (٢)

ثم استعدت عليه « سليمان بن عبد الملك » فقال لزيد : « اعلم انك قد شرطت لها شروطا لم تف بها ، فطلقها ... »

(١) الاغانى : ١٤/١٦٤ ساسى
(٢) الاغانى : ١٤/١٦٣ ساسى

وطلقها زيد بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك (١)

وآب الى دنياه ، يحصى خسائره فى تلك الصفقة ...

وضحكت المدينة كلها ، وهى تحصى معه كم أنفق من مال ، وكم احتمل من نصب واذلال ، ليرجع آخر الأمر صفر اليدين من سكينة ...

وضحكت سكينة على هذا المجتمع الذى يضحك ، وحق له البكاء ...

على أن هناك رواية ، انفرد بها أبو عبد الله المصعب الزبيرى ، فى خاتمة هذا الزواج

فلقد ذكر فى (نسب قريش) : ان زيدا العثمانى هلك عنها فورثته (٢)

وذكر معه ، أن لزيد أولادا من أم ولد ، انقرضوا جميعا : قتل منهم ثلاثة ، مع من قتل من بنى أمية ، زمان « مروان بن محمد » آخر خلفائها .

على حين أجمع ابن خلكان ، وأبو الفرج الاصبهانى ، وابن العماد الحنبلى ، على طلاقها منه بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك

والأمر ــ بعد ــ غير مستغرب من تناقض الروايات وتضارب الأخبار

بل ان التوفيق هنا بين الروايتين غير متعذر ، فربما يكون زيد قد طلق سكينة بأمر سليمان بن عبد الملك ، ثم مات وهى فى عدتها ، فورثته !

هكذا قالوا

وانما الذى لا يهون تعليله وفهمه ، هو القول بأنها تزوجت ــ بعد زيد ــ بعمر بن حكيم بن حزام ..

ذكرت ذلك احدى روايات الأغانى ، وان اختلفت فى دوره : أكان بعد زيد أم قبله ..

وذكرته دائرة المعارف فى ترجمة سكينة ــ نقلا عن زيادة لابن قتيبة فى (المعارف) ــ وان يكن اسمه قد ورد فيها « عمرو بن حاكم بن حزام »

(١) وفيات الاعيان : ١/٢٩٨ وشذرات الذهب : ١/١٥٤
(٢) ص ١٢٠ ط. الذخائر

ولعل الاسم ترجم خطأ عن الأصل الانجليزى ، وكان سبب الخطـأ ، تشابه رسم حكيم وحاكم فيها : HAKIM

وعمرو هذا ، أو عمر ، هو أخ الجد عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، زوجها بعد مصعب !

ولا ندرى كيف أدرك سكينة ، الا أن يصح فى حساب هؤلاء ، أن تتزوج من رجلين بينهما ثلاثة أجيال ! (١)

أما المصادر الأخرى ــ وأذكر منها نسب قريش ، وجمهرة أنساب العرب ووفيات الأعيان ، وشذرات الذهب ، وكل المصادر الشيعية الحديثة التى قرأتها ــ فلم تشر الى هذا الزواج بكلمة

وقد تتبعت أخبار زوجات بنى حكيم بن حزام فى نسب قريش ، فلم أر لسكينة ذكرا الا فى زواجها من عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم ابن حزام ، الذى ولدت له عثمان « قرينا » وحاكما وربيحة ... (٢)

وصاحب نسب قريش ، هو أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيرى ، الذى يلتقى نسبه مع نسب بنى حكيم بن حزام ، عند خويلد الأسدى ، جد الزبير بن العوام ومصعب ، وجد حكيم بن حزام ..

وقد أحصى نسب قريش ، دون أن يشير الى هذا الزواج بين حفيدة عمته خديجة ، وزوجة عمه مصعب ، وبين الجد عمر بن حكيم بن حزام ابن خويلد !

وكذلك لم يشر الى الفتاة التى زعمت رواية الأغانى ، أنها كانت ثمرة هذا الزواج ! !

***

أفندع اذن حياة سكينة الزوجية لنمضى الى جديد من أمرها ؟

كلا .. فما زال هناك ما يقال

ان الشيعة ــ كما ذكرنا فى مطلع هذا الفصل ــ يرفضون الاعتراف بهذه الزيجات المتعاقبة ، ولا يقبلون منها غير ما ذكروه من زواجها بابن

---

(١) انظر مساق نسب ولد حزام بن خويلد فى نسب قريش : ٢٣١، ٢٣٢ وفى الجمهرة «١١٣»

(٢) مثله فى « جمهرة أنساب العرب : ١١٢ ذخائر »

عمها الحسن ، ثم بمصعب بن الزبير

وعذرهم واضح ، فما كانت هـذه الأخبـار فى تناقضـها وتدافعها واختلاطها ، بالتى تدعى الى شيء من ثقة وطمأنينة

وقد رأيناها زوجت سكينة من عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم ابن حزام ، ثم من عم أبيه : عمر بن حكيم !

وبعثت الموتى من قبورهم بعد سنين ذوات عدد ، فجعلت الرباب أم سكينة ، ترفض زواجها من عبدالله بن مروان ، بعد قتل مصعب !

وسبقت الزمن، فجاءت على مسرح الأحداث بالأجنة فى بطون أمهاتهم ، حين جعلت هشام بن عبد الملك ، الذى ولد بعد مقتل مصعب — أو كان رضيعا فى عامه الأول — يتدخل فى حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن ، مع سكينة ، لما أراد زواجها بعد ترملها من مصعب بن الزبير !

فليس بالغريب أن يرفض الشيعة هذه المرويات جميعا ، وقد تعارضت فتساقطت ، وكذب بعضها بعضا ، وجاوزت نطاق المعقول !

***

أما تعدد زيجات سكينة ، فليس فى ذاته بموضوع غرابة أو انكار ، وان كانت « دائرة المعارف » نظرت الى هذه المسألة بعين مريضة ، وقالت فى غمز : « واشتهرت سكينة بصفة خاصة بزيجاتها المتعاقبة » فخصت بنت الحسين وسليلة النبوة ، بتعاقب الزيجات

وتجاهلت ما كان يقضى به العرف المتبع فى بيئة السيدة سكينة ، من اسراع الخطا باليها كلما خلت من زوج ، حرصا على شرف المصاهرة . وما أحسب المستشرق « ماسيه » — كاتب مادة سكينة فى الدائرة — قد جهل هذا العرف ، أو غاب عنه — وهو يغمز — أن عقائل قريش الكريمات قد شاركن سكينة فى هذا الذى زعم أنها اشتهرت به بصفة خاصة

وقد صح لدينا من أخبار زوجينها ، انها تزوجت فعـلا من ثلاثة ، مصعب ، وعبـد الله بن عثمان الحزامى ، وزيد بن عمر العثمانى : أما الآخرون ، فلم يتم زواجها بأحد منهم ، فهل يقال ان « سـكينة » ،

اشتهرت بزيجاتها المتعاقبة ، لأنها تزوجت ثلاث مرات ؟

من قبلها تزوجت جدتها السيدة خديجة أم المؤمنين ، باثنين من أشراف قريش ، ثم تزوجت للمرة الثالثة من محمد بن عبدالله ، عليه الصلاة والسلام

وتزوجت « أسماء بنت عميس الخثعمية » جعفر بن أبى طالب وولدت له عبد الله ، صهر الامام على وابن عمه ، فلما استشهد جعفر فى «مؤتة» تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له ابنه محمدا ، ثم خلف عليها من بعده الامام على بن أبى طالب ، فولدت له ابنه يحيى الذى استشهد مع أخيه الحسين فى كربلاء

وعمة سكينة « أم كلثوم بنت على بن أبى طالب » تزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فولدت له زيدا ، ثم خلف عليها عون بن جعفر بن أبى طالب ، ثم تزوجها من بعده أخوه محمد بن جعفر ، فلما مات تزوجها أخوه عبدالله بن جعفر بعد طلاقه لأختها (١)

وأم الحكم ، بنت عبد العزيز بن مروان — أخت الاصبغ — تزوجها الوليد ثم سليمان ، ثم هشام ، بنو عبد الملك بن مروان !

وعائشة بنت طلحة ، ضرة سكينة ، توفى عنها روجها عبدالله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، فتزوجها مصعب بن الزبير ، فلما قتل تزوجها عمر ابن عبيد الله ، فلما تأيمت بعده خطبها خاطبون ، لكنها ردتهم

وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، قتل عنها عبدالله بن أبى بكر الصديق ، ثم تزوجت عمر بن الخطاب فقتل عنها ، فتزوجها الزبير بن العوام .. (٢)

ومثلهن كثيرات ، من عقائل هاشميات وقرشيات ، لا أحصيهن عددا ..

---

(١) جمهرة أنساب العرب : ٢٣ ط الذخائر
(٢) نسب قريش : ٢٦٥

الفصل الثالث

فى المجتمع

- شخصيتها الاجتماعية
- المجتمع فى عصرها
- صورتها فى هذا العصر
- عود على بدء
- كلمة يجب أن تقال
- الأديبة الناقدة

شخصيتها الاجتماعية

وأحسب أن الأوان قد آن بعد ذلك كله ، لندع هذا الجانب من حياة الشريفة الهاشمية الحسناء ، الى جاب آخر ، لم يكن أقل حظا من اهتمام الرواة ، وصناع الأخبار ، وناسجى القصص والحكايات

ذلك هو مكانها فى الحياة الاجتماعية والأدبية لعصرها

والذين كتبوا عن هذه السيدة الكريمة ، لم يختلفوا فى أنها كانت الشخصية النسوية الأولى فى المجتمع الحجازى على أيامها ، ولو استعرنا أسلوب عصرنا ، لقلنا انها كانت ــ فيما تصور المرويات والاخبار ــ نجم المجتمع ، ولكنا نؤثر ألا نستعمل هذا المصطلح العصرى الذى ابتذل فى وصف نجوم الملاهى وكواكب المحافل الساهرة ، فى حديثنا عن سليلة النبوة وبنت الامام الحسين . وانما حسبنا أن نقول انها منذ استقر بها المقام فى مدينة جدها الرسول ، استطاعت أن تنفرد بمكانة فى المجتمع لم ترق اليها سيدة سواها

***

والأنباء والمرويات عن حياتها الاجتماعية مثيرة ، وبعضها مما لا يسهل التسليم به ولا يهون تصوره مع حفيدة الزهراء رضى الله عنها ، لكنا اذا استبعدنا هذا كله ــ على ما سيرى القارىء بعد حين ــ بقى بعده ما يؤكد أنها كانت فعلا الشخصية الاجتماعية الأولى فى عصرها ، وذلك لما اجتمع لها من خلايا وسجايا ، جعلت لها جاذبية خاصة ، لم تشركها فيها سيدات العصر ، وفيهن حسان خلبن الألباب بجمالهن ، وشريفات قرشيات وهاشميات ، بعضهن من سيدات البيت النبوى الكريم

والحق أن السيدة سكينة ، كانت بادية الاعتزاز بنسبها العالى وشرفها

الرفيع . وكان خصومها وخصوم آلها ، يقرون لها بهذا الاعتزاز ويرونها أهلا لأن تباهى به من تباهى فتسكته . وقد مر بنا كيف رد حاديها على حادى عائشة بنت طلحة ـــ حين افتخر بجمالها الستين ـــ بقوله :

عائش هذه ضرة تشكوك لولا أبوها ما اهتدى أبوك !

فأمرت عائشة حاديها أن يكف فكف !

وقد علق شيخ الاسلام « الامام تاج الدين السبكى » على هذا الموقف فقال بعد أن نقل الخبر :

« فلله درها ـــ يعنى عائشة ـــ حيث كفت فى موضع الانكفاف أدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد كان الأمر ـــ والمفاخرة فى الدنيا ـــ هزلا ، فقابلته سكينة بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جدا ، فأفحمت خصمها وأقامت عليها الحجة ، فلله درها من مناظرة عرفت مواقع الجدل ، ودر عائشة من مذعنة للحق منقادة الى الصدق »(١)

وفى الأخبار ، أن سكينة شهدت يوما مأتما فيه بنت لعثمان بن عفان ، فقالت العثمانية : أنا بنت الشهيد . فأنكر المجلس أن تفخر بأبيها على مسمع من بنت سيد الشهداء ، على حين أمسكت « سكينة » صامتة لا تعلق ، الى أن أذن المؤذن من مسجد الرسول للصلاة ، فلما بلغ قوله : « أشهد أن محمدا رسول الله » التفتت سكينة الى بنت عثمان وسألتها :

ـــ هذا أبى أم أبوك ؟

فأجابت العثمانية فى تواضع :

ـــ لا أفخر عليكم أبدا (٢)

وقالوا كذلك ، ان « الأحوص الأنصارى » سمع « سكينة » تفخر بأبيها ، فجرؤ على أن يفاخرها ، ويقال انه كان يضمر لها حبا لا يجرؤ على البوح به :

فخرتْ وانتمت فقلت : ذرينى
ليس جهل أتيتِه ببديع

(١) طبقات الشافعيه الكبرى : ١٦٦ ، ١٦٧ ط الحسينية
(٢) الاغانى : ١٥٩/١٤ ساسى

فأنا ابن الذى حمت لحمَه الد
بر قتيل اللحيـــان يوم الرجيع
غســـلت خالى الملائكة الأبـــــ
رار ميتا ، طوبى له من صريع ! (١)

وكان جده « عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى » قد بعثـه النبى فى سرية الى المشركين فقتلوه ، ولما أرادوا أن يصلبوه حمته الدبر أى النحل ، فلـُقب بحمى الدبر . وخاله ، هو ابن عمير بن مخشى الذى استشهد ، فقيل ان الملائكة غسلته

فلما فاخر الأحوص سكينة ، غضب لها الناس وفيهم سليمان بن عبد الملك ، الذى أنكر على الأحوص رده على بنت الحسين فيما أنكر ، ونفاه عن المدينة عقابا له

وقال قائل من القوم : « وقد لعمرى فخر الأحوص بفخر لو على غير ســـكينة فخر به ، وبأبى سكينة حمت أباه الدبر ، وغســـلت خـــاله الملائكة ! » (٢)

***

وكذلك عرف عنها أنها كانت تعتز بجمالها وتعده من نعم الله عليها ، وتحرص على اظهاره فى أبدع مظهر ، وما أناقتها المشهورة ، وطرتهـــا السكينية المبتدعة ، الا آية اعتزاز بذلك الجمال وعناية به

ولم تكن تسمح لضرتها « عائشة بنت طلحة » أن تتطاول أمامها بما لها من حسن ، بل كانت تلقبها بذات الأذنين ، كى تردّها الى شىء من التواضع تجاهها

وقد مر بنا الخبر عن مباهاتها بجمال بنتها ، ومبالغتها فى تزيينها ، ثم قولها : انها ما ألبستها الدر الا لتفضحه !

وكانت شجاعة اللسان والجنان :

---

(١) الاغانى : ٢٢٤/٤ ، دار الكتب
(٢) الاغانى : ٢٢٤/٤ دار الكتب وانظر ترجمة عاصم بن ثابت ، جد الاحوص ، وخاله بن عمير فى (الاصابه ، والاستيعاب)

سمعت أن ابن مطير — خالد بن عبـد الملك بن الحارث بن الحكم المروانى (١) — يشتم جدها كرم الله وجهه ، من فوق منبر جدها عليه الصلاة والسلام ، فكانت « تجىء يوم الجمعة لتشهد صلاة الجماعة ، فتقوم بازاء الحارث اذ يصعد المنبر ، فاذا شتم عليا — رضى الله عنه — تصدت له سكينة فشتمته ، ثم أمرت جواريها أن يشتمنه ، فلا يملك ابن مطير أن يرد عليها ، بل يكتفى بأن يأمر الشرطة بضرب الجوارى» (٢)

ويذكرون فى وصف شجاعتها حادثة عجيبة ، ان يبدُ فيها عنصر الغلو، فذلك مما لا يضيع دلالتها على رأى الناس فى هذه السيدة الباسلة .

قالوا ان سلعة ظهرت بأسفل عينيها فما زالت تكبر حتى أخذت جانب وجهها وعينها . وكان بين مواليها مولى رومى يدعى « درافيس » ، ذو خبرة بالطب والجراحة . فشكت اليه هذه السلعة التى تؤلمها ، وتوشك أن تشوه جمالها . ولما سألها درافيس :

— أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك ؟

أجابت دون تردد : بلى

قال الراوى : « فأضجعها درافيس ، وشق جلد وجهها أجمع ، وسلخ اللحم من تحت السلعة حتى ظهرت عروقها . وكان من السلعة شىء تحت الحدقة ، فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية ، ثم سل عروق السلعة من تحتها فأخرجها أجمع ، ورد الحدقة الى موضعها وسكينة مضجعة لا تهتز ولا تئن ، حتى فرغ مما أراد ...

« وزال ذلك عنها ، وبرئت منه ، وبقى أثر من تلك الجراحة فى مؤخر عينها ، فكان أحسن شىء فى وجهها من كل حلى وزينة ، ولم يترك فى نظرها ولا فى عينيها أدنى أثر » (٣)

وكانت آية فى ضبط النفس والتحكم فى عواطفهـا والسـيطرة على وجدانها ، وبهذا الضبط استطاعت أن تحتفظ بمرحها فى بيت أبيها رضى

(١) كان الحارث واليا على المدينة لهشام بن عبد الملك ، وقد عزله عنها سنة ١١٨ هـ بعد وفاة سكينة بعام . انظر تاريخ الطبرى : ٢٢٨/٨

(٢) الاغانى : ١٥٩/١٤

(٣) الاغانى : ١٦٥/١٤ ساسى

الله عنه كى تكون مبعث أنس له فى عوابس الظروف وحوالك الأيام . وبلغ بها هذا الضبط ، أن أمضت حياتها الزوجية مع « مصعب » وهو لا يدرى ما تضمره له من حب عميق وعاطفة قوية ، حتى جاء يودعها الوداع الأخير فصاحت من خلفه : وا حزناه عليك يا مصعب !.. فالتفت اليها وقال فى دهشة : أو كل هذا لى فى قلبك ؟.. قالت : أى والله ، وما كنت أخفى أكثر !

وكانت كريمة تهين المال ، وان ضاق القيم على أموالها باسرافها فى الكرم . حج أشعب مرة ، فأمرت له بجمل قوى يحمل أثقاله ، فأعطاه القيم جملا ضعيفا ، فمضى أشعب يشكوه الى سيدته فأرضته (١)

وقد مر بنا آنفا ، ما ذكروه من وقفتها بالمحصب من منى ترمى الجمار، فلما سقطت من يدها الحصاة السابعة ، رمت بخاتمها بدلا من هذه الحصاة !

أما نوادر ظرفها فكانت حديث المجتمع وروح مسامره ، وكان الناس يتناقلون هذه النوادر ويضحكون لها بملء قلوبهم وأفواههم ، يستوى فى ذلك من يستطيبون النكتة ويهشون للدعابة ، ومن عرفوا بالحزم والشدة ، وما ظنك بعمر بن عبد العزيز فى صرامة جده ، ووقار هيبته ، يضحك لاحدى نوادر سكينة حتى يمسك بطنه ، وهو يومئذ وال على المدينة (٢)

ثم قصتها مع ابراهيم بن عبد الرحمن ، وحديث « بنات أشعب » ، وردها على من سألها لم تكثر من المزاح وأختها لا تفعل ، كل هذه الأخبار وأمثالها معها ، تشهد بما كان للهاشمية الحسناء من ظرف آسر ، وبديهة حاضرة ، واعتداد بالذات !

وهكذا كانت عزة النسب ، وعزة الجمال ، وأناقة المظهر ، وظرف السجايا ، وذكاء الأنوثة ، ولطف الدعابة ، الى جانب ما عرف لها من ذوق فنى أصيل ، وفقه لأسرار البيان ، عناصر تشترك جميعا فى تأليف

---

(١) الاغانى : ١٤/١٦٥ ساسى
(٢) الاغانى : ١٤/١٥٩ ساسى

شخصيتها الفريدة ، بكل جاذبيتها وسحرها

ثم أضيف الى ذلك كله ، هذا المزاج النادر من التحرر والاباء ، من التسامح والتصون ، من الانطلاق والترفع ، فأتيح لها أن تظهر فى المجتمع ملء البهاء والظرف ، ملء الجلال والوقار ، وتهيأ لها أن تختار أسلوبها فى الحياة ، متحررة من النفاق الاجتماعى ، دون أن ينال ذلك من مهابتها أو يلقى ظلا من التهاون فيما يجب لمثلها من تصوّن وعزة

وقد أشرنا — فى الحديث عن حياتها الزوجية — الى دوافع ذلك التمرد على نفاق المجتمع والسخرية بأوضاعه وأكاذيبه ، وربما كان من مظاهر هذا التمرد ، ظهورها فى المجتمع الأدبى على نحو لم نألفه من أختها وبنات عمها ، ولكنها ظلت مع هذا الظهور ، « بنت النبى » ! ولم تنس لحظة ، ولا نسى المجتمع ، أنها سكينة بنت الحسين !

وانها لتجالس الأجلة من رجال قريش ، ويجتمع لديها الشعراء ، وتصغى الى المغنين ، وتسيطر على المجتمع الأدبى ، دون أن تتخلى عن اعتزازها بشرفها العالى ، أو يزايلها وعيها لموضعها من بيت النبوة !

المجتمع فى عصرها

بهذه الشخصية الفريدة الجذابة ، ظهرت سكينة فى المجتمع فشغلت عصرها ، والعصور من بعده

ولن نستطيع المضى فى الحديث عن سكينة فى المجتمع الادبى ، قبل أن نمهد له بحديث عن حال هذا المجتمع فى عصرها . وهو حديث قد يطول ، لكن عذرنا أن فهمه على حقيقته ضرورة لازمة ، لتبين الشخصية الأدبية للهاشمية الحسناء ، والمكان الذى شغلته فى المجتمع الأدبى

***

وقد يخيل الى كثير منا ، أن وصف حال الأدب والمجتمع فى الحجاز فى عصر سكينة ، مما لا مجال لمزيد من القول فيه ، بعد أن فرغ منه الدارسون وأضافوه الى ذلك الصنف من الموضوعات « التى نضجت واحترقت »

ولهم فى تاريخ هذا العصر ما شبه المسلّمات التى ليس للخلاف فيها مجال

منهـا : ان مجتمع الحجاز ـ وبخاصة فى مكة والمدينـة ـ فى العصر الأموى ، قد فسد وانحل ، أثرا لسياسة بنى أمية التى عزلت أبنـاء الأشراف من الحجازيين عن مهام الملك وشئون السياسـة ، وحبستهم هنالك فى فراغ يفسده الشـباب ، وتفسده معـه أموال أغدقها عليهم الأمويون فى سخاء مسرف ، وبذلك قضوا عليهم أن ينفقوا أيامهم فى اللهو والعبث ويبلوا حياتهم فى لعبث والمجون (١)

---

(١) الدكتور طه حسين : حديث الاربعاء ٢٣٥/١

ومنها : ان تشجيع حياة المجون فى العاصمتين الدينيتين للاسلام ، قصد به الأمويون الى القضاء على مالهما من نفوذ دينى كبير ، وسيطرة روحية نافذة ، حتى جاز للأستاذ المحقق « عبد الله العلايلى » أن يذهب الى أن الأمويين « قد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين ، من بينهم عمر بن أبى ربيعة ، لأجل أن يمسحوا عاصمتى الدين — مكة والمدينة — بمسحة لا تليق بهما ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية » وساق هنا حادثة الأخطل الشاعر النصرانى ، « الذى استخدموه — منذ عهد معاوية — فى الحرب الكلامية التى أرادوا بها أن يخضدوا من شوكة المدينة ويقضوا على الطبقة الدينيه المحترمة ليخلصوا من سيطرتها » (١)

ومنها : أن شعر عمر بن أبى ربيعة هو مرآة للمجتمع الحجازى فى ذلك العصر ، والمصدر الأول والأهم لفهمه على حقيقته وتأريخه تأريخا صادقا ، حتى ليقول أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين : « ان الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمة التى أتيحت لهم ، حين حفظ الدهر لهم شعر عمر بن أبى ربيعة كله أو أكثره . فلست أعرف شاعرا اسلاميا استطاع أن يمثل العصر الذى كان يعيش فيه والبيئة التى يحيا فيها ، كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعا فى درس الجماعة التى كانت تحيط بهما : تريد أن تدرس العراق فى صدر الدولة العباسية وأن تدرس مدينة بغداد أيام الرشيد والأمين خاصة فارجع الى أبى نواس . تريد أن تدرس حياة الحجاز فى صدر الدولة الأموية فارجع الى ابن أبى ربيعة . وليس من شك فى أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس مسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك وأبى العتاهية ، كما أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس العرجى والاحوص وابن ذريح ، ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء ، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ، ما ستجده عند أبى نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها ، ولا ما ستجده عند عمر بن أبى ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها . تلك نعمة

(١) الاستاذ عبد الله العلايلى : أشعة من حياة الحسين : ٤٧

يتيحها الدهر من حين الى حين للباحثين عن التاريخ الأدبى ، حين يظهر لهم شاعرا أو كاتبا قد انتهت اليه كل الخلال كما ظهرت فيه كل النقائص التى كانت تمتاز بها بيئته ، والتى كانت بعيدة الأثر فى عصره . وانما يظهر هؤلاء الكتاب والشعراء فى العصور التى تقوى فيها الحياة الأدبية قوة خاصة ممتازة ، كذلك العصر الأموى فى الحجــاز وكذلك العصر العباسى فى بغداد » (١)

ثم أكد هذا مرة أخرى حين قال :

« ان المؤرخ الذى يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء فى هذا العصر ، يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبى ربيعة ، فسيجد منه فى شعر هذا الشاعر كل ما أراد » (٢)

***

هذه هى الصورة الذائعة الشائعة لمجتمع الحجاز فى عصر سكينة ، كما رسمها أعلام مؤرخى الأدب ، وكما استقرت فى أذهاننا

فهل كان الحجاز حقا ، على ما وصفوه ؟

وهل الذى قالوه وقاله عمر بن أبى ربيعة ، هو كل ما كان هناك ، ولا شىء سواه ؟

نرجىء الجواب عن هذا ، ريثما نسمع ما قالوه أيضا ، فى بنت الامام !

(١ ، ٢) حديث الاربعاء : ٢٨٩ ، ٢٩١

صورتها فى هذا العصر

وطبيعى أن يكون وجود سكينة فى هذا المجتمع ، ومعاصرتها لعمر ، كافيين لأن يلقيا على صورتها ظلالا من ذلك كله

فمؤرخو الأدب ، يكادون لا يرتابون فى أن عمر قد تغزل فيها دون تكتم أو حذر أو احتياط ، وأنه قد كانت له معها مواقف ، سجلها فى ديوانه ، وتغنى بها المغنون والمغنيات فى الحجاز وغير الحجاز ، وأشبعتها (كتب الأغانى والأمالى) شرحا وتفصيلا

فمن تلك القصائد ، بائيته المشهورة :

قالت سكينة والدموع ذوارف
منها على الخدين والجلباب

ليت « المغيرى » الذى لم أجزه
فيما أطال تصيدى وطلابى

كانت ترد لنا المنى أيامنا
اذ لا نلام على هوى وتصابى

خُبِّرت ما قالت فبِتُّ كأنما
يرمى الحشا بنوافذ النشاب

أسكينَ ما ماء الفرات وطيبه
منى على ظمأ وفقد شباب

بألذّ منك وان نأيت وقلما
ترعى النساءُ أمانةَ الغيّاب

ان تبذلى لىَ نائلا أشفى به
داءَ الفؤاد فقد أطلت عذابى

وعصيت فيــك أقاربى وتقطعت
بينى وبينهــمُ عُرَى الأســباب
فتركتنى ، لا بالوصــال ممتعـا
منهم ، ولا أســعفتِنى بثواب
فقعــدتُ كالمهريق فضــلةَ مائه
فى حــر هــاجرة للمــع سراب

ذكرها القالى فى أماليه ، والزجاج فى أماليه كذلك ، عن الأخفش عن المبرد

على ان « الاصفهانى » — وهو معاصر « للقالى » ، وان تناءى بهما المكان ما بين أقصى المشرق وأقصى المغرب — قد رواها مرة هكذا : (١)

قالت « ســعيدة » والدموع ذوارف
منهــا على الخــدين والجلبــاب
... ...
أ « سعيد » ما ماء الفرات وطيبه
منى على ظمــأ وفقــد شــباب
بألــذ منــك وان نأيت وقلمــا
ترعى النســاء أمانة الغيــاب

قال أبو الفرج :

« وسعيدة ، هى سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر قد تعرض لها بعد طوافه ، فقالت له : ويحك يا ابن أبى ربيعة ، ما تزال سادرا فى حرم الله متهتكا ، تتناول بلسانك ربات الجمال من قريش ! آمرك بتقوى الله وترك ما أنت عليه » . قال أبو الفرج : « وانما غيَّره المغنون فقالوا : سكينة »

وقال أبو اسحق الحصرى (ت ٤١٣ هـ) بعد أن أورد هذه الأبيات كرواية القالى : «كذب من روى هذا الشعر فى سكينة رضى الله عنها» (٢)

(١) حـ١٦/١٠
(٢) الحصرى : زهر الاداب ١٠١/١

وأخـذ الشيخ الشنقيطى » برأى صـاحب الأغانى فى أن القصيدة قيلت فى سعدى هكذا :

❋ قالت سعيدة والدموع ذوارف ❋

على انه عقب عليها بما يشير الى أنها كانت تروى فى عصر الرشيد ، على انها فى سكينة بنت الحسين . قيل : « ان اسحاق الموصـلى غنى الرشيد يوما :

❋ قالت سكينة والدموع ذوارف ❋

فوضع القدح من يده وغضب غضبا شديدا وقال : لعن الله الفاسق ولعنك معه !.. فسقط فى يد اسحاق ، فعرف الرشـيد ما به فسكن ثم قال : ويحك ، أتغنينى بأحاديث الفاسـق ابن أبى ربيعة فى بنت عمى وبنت رسول الله ؟.. ألا تتحفظ فى غنائك ؟.. أو تدرى ما يخرج من رأسك ؟ » (١)

أما الدكتور زكى مبـارك ، فقرر أن عمر قالها فى « سكينة » اثر اجتماعه بها مع نسوة من أهل المدينة ، تلبيـة لدعوة بعثت بها السيدة سكينة اليه مع رسول لها ، وواعدته « الصورين » مكانا ، فى ليـلة حددتها له . وقد ذكر الدكتور مبارك مرجعه : « صاحب الأغانى ، فى أخبار عمر ، فى الجزء الأول » (٢)

فعلق « السيد الفكيكى » على هذا بقوله :

« مع العلم بأن صاحب الأغانى لم يذكر هذا الشعر فى ليلة الصورين ، وانما ذكر شعرا آخر »

ونقول : بل قد ذكرها صـاحب الأغانى فى حادثة الصورين فعلا ، فى الجزء الأول من الأغانى (٣)

على أنه ، كذلك ، ذكر حادثة الصورين هذه بنصها فى موضع آخر ، ومع شعر آخر ، قال :

---

(١) الخبر فى « الاغانى : ١٦/١٢ »
(٢) حب أبى ربيعة وشعره : ١٩٨
(٣) ص ١٦١ ، ١٦٢ ط دار الكتب ولعل السيد الفكيكى رجع الى نسخة أخرى

« اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبى ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه ، فتشوقن اليه وتمنينه . فقالت سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما : أنا لكن به . فأرسلت اليه رسولا ، وواعدته الصورين ، وسمّت له الليلة والوقت ، وأعدت صواحباتها . فوافاهن عمر على راحلته فحدثهن حتى أضاء الفجر وحان انصرافهن . فقال لهن : والله انى لمحتاج الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة فى مسجده ، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئا . ثم انصرف الى مكة وقال :

ألمم بزينب ان البين قد أفدا
قل الثواء لئن كان الرحيل غدا
قد حلفت « ليلة الصورين » جاهدة
وما على المرء الا الحلف مجتهدا
لأختها ، ولأخرى من مناصفها
لقد وجدت به فوق الذى وجدا
لو جمع الناس ثم اختير صفوهم
شخصا من الناس لم أعدل به أحدا (١)

والسند فى الروايتين واحد ! ..

وقد غنى بالبائية « الهذلى ، والغريض »

وغنى بالدالية « ابن سريج ، ومعبد » وكذلك « الغريض ومالك » فى بعض الروايات

ثم ان أبا الفرج نفسه ، عاد فذكر هذه الأبيات الدالية ، مقترنة بليلة الصورين ، مع اضافة جديدة لم ترد فى الموضعين السابقين . تلك هى أن عمر لما انصرف من اجتماع الصورين ، قال داليته :

* ألمم بزينب ان البين قد أفدا *

« فلما كان بمكة قال : يا غريض ، انى أريد أن أخبرك بشىء يتعجل لك نفعه ويبقى لك ذكره ، فهل لك فيه ؟.. قال : أفعل من ذلك ما شئت

(١) الاغانى : ١٠٥/١ دار الكتب

وما أنت أهله . قال : انى قلت فى هذه الليلة التى كنا فيها ــ يعنى ليلة الصورين ــ شعرا ، فامض به الى النسوة فأنشدهن ذلك وأخبرهن انى وجهت بك فيه قاصدا . قال : نعم . وحمل الغريض الشعر ورجع الى المدينة فقصد سكينة وقال لها : جعلت فداك ياسيدتى ومولاتى ! .. ان أبا الخطاب أبقاه الله وجهنى اليك قاصدا

قالت : أو ليس فى خير وسرور تركته ؟ ..

قال : نعم ..

قالت : وفيم وجّهك أبو الخطاب حفظه الله ؟ ..

قال : جُعلت فداك !.. ان ابن أبى ربيعة حملنى شعرا وأمرنى أن أنشدك اياه ..

قالت : فهاته ..

فأنشدها :

* ألمم بزينب ان البين قد أفدا * الأبيات

فقالت سكينة : يا ويحه !.. فما كان عليه أن لا يرحل فى غدء ؟ ..

ووجهت الى النسوة فجمعتهن وأنشدتهن الشعر وقالت للغريض :

ــ هل عملتَ فيه شيئا ؟ ..

قال : قد غنيته ابنَ أبى ربيعة

قالت : فهاته ..

فغناه الغريض ، فقالت سكينة :

ــ أحسنت والله وأحسن ابن أبى ربيعة !.. لولا انك سبقت فغنيته عمرَ قبلنا لأحسنا جائزتك

ثم نادت : يا بنانة ، أعطيه بكل بيت ألف درهم ، فأخرجت اليه بنانة أربعة آلاف درهم فدفعتها اليه . وقالت سكينة :

ــ لو زادنا عمر لزدناك »

ومع ان الجائزة تحدد عدد الأبيات بأربعة فقط كما لاحظ « انسيد الفكيكى » الا انها جاءت فى الديوان ــ شرح محمد العنانى ــ بزيادة

خمســـة أبيات ، لم ترد فى « الأغانى » مع تصريح الشارح بأنها كانت مرجعه ومعتمده . والأبيات الخمسة هى :

لعمـــــرها ما أرانى ان نوى نزحت
أو دام ذا الحب الا قاتلى كمـــدا
بكر دعا فأتى عمـــــدا لشـــقوته
ما جاء من ذاك ان غيا وان رشدا
من ينهَ يَعصَ ، ومن يحسد ، ولا وأبى
ما ضرَّها من وَشَى عندى ومَن حسدا
هــــــذا يقربه منهـــا وعبرتهـــا
يوم الفراق فما راعى ولا اقتصـــدا
وقـــد نهيت فؤادى عن تطلبهـــا
فاغشنى وأتى ما شـــاء معتمـــدا !..

ورفض الأستاذ الفكيكى هذه الأبيات .

ورفض معها القول بأن الدالية قد قيلت فى سكينة ، ولم يرد اسمها قط فى بيت منهـــا . وانما هى فى « عائشة بنت طلحة المخزومية ، وهى بنت أخت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وكانت تسكن المدينة ، ولا يبعد أنها كانت من جملة النسوة فى ليلة الصورين ان صحت الرواية ، ذلك لأن عمر بن أبى ربيعة قال فيما قال فيها :

يا أم طلحة ان البـــين قـــد أفـــدا
قل الثواء لئن كان الرحيـــل غـــدا
أمسى العراقى لا يـــدرى اذا برزت
من ذا تطـــوف بالأركان أو ســـجدا

فأنت ترى ان مطلع تلك الأبيات وهذه واحد ، لولا اختلاف الكناية عن اسمها ، تهيبا من غضب فتيان بنى تيم الذين توعدوه » [1]

---

(١) السيدة سكينة : ٣٢ ــ والابيات فى ديوان عمر ، ص ١٤٠

وقصيدة ثالثة ، رواها « أبو على القالى » فى أماليه هكذا .

ان طيف الخيـــال حين ألمّا
هاج لى ذكرة وأحدث همّا

جددى الوصل يا « سكين » وجودى
لمحب رحيله قد أحمّا

ليس بين الرحيل والبين الا
ان يردوا جمالهم فتزمّا

ولقد قالت مخفيا لغريض
هل ترى ذلك الغزال الأجمّا

هل ترى فوقه من الناس شخصا
أحسن اليوم صورة وأتمّا

ان تنيلى أعش بخير وان لم
تبذلى الود مت بالهم غمّا

وقال أبو على : انها من شعر عمر فى سكينة (١)

وكذلك جاءت فى الديوان ، برواية أبى على .

غير أن « أبا العلاء المعرى » روى البيتين الأولين هكذا :

ودعى القلب يا « قريب » وجودى
لمحب فراقه قد أحمّا

ليس بين الحياة والموت الا
أن يردوا جمالهم فتزمّا (٢)

وكذلك رواها أبو الفرج ، بلفظ « قريب » :

ان طيف الخيـــال حين ألمّا
هاج لى ذكرة وأحدث همّا

جددى الوصل يا قريب وجودى
لمحب فراقه قد ألمّا

(١) الامالى « سمط اللالى : ٢/٣٠٥ »
(٢) رسالة الغفران . تحقيق بنت الشاطىء : ٥٣٩ ط ٣ ذخائر

ليس بين الحيـــاة والموت الا
أن يردوا جمـــالهم فتزمـّا
ولقـــد قلت مخفيـا لغريض :
هـل ترى ذلك الغزال الأجمـّا
هل ترى مثله من الناس شخصا
أكمل الناس صـورة ، وأتمـّا (١)

وأعاد رواية بيتين منهـا فى موضـع آخر ، عمن تدعى أم اسحاق :
« سمعت ابن سريج على أخشب منى غداة النفر وهو يغنى :
جددى الوصل يا قريب وجودى
لمحب فراقـه قـد ألمـّا
ليس بين الحيـاة والموت الا
أن يردوا جمـالهم فتزمـّا

فما تشـاء أن تسمع من خباء ولا مضرب ، حنينـا ولا أنينـا الا سمعته ! » (٢)

ثم أعادها بمثل هذه الرواية فى موضع ثالث ، من أخبار « ابن سريج » ثم أضاف هذا الخبر :

« أنشـد جعفر بن محمد بن زيد بن على بن الحسين عليهم السلام قول عمر :
ليس بين الحيـاة والموت الا
أن يردوا جمـانهم فتزمـّا

فطرب وارتاح وجعل يقول : لقد عجلوا البين ! .. أفلا يوكون قربة ؟ أفلا يودعون صديقا ؟ .. أفلا يشدون رحلا ؟ .. حتى جرت دموعه » (٣)

وأنكر « السيد الفكيكى » على جامع ديوان عمر أن يأخذ برواية القالى ،

---

(١) الاغانى : ١٢١/١ دار الكتب
(٢) الاغانى : ٢٩٣/١ دار الكتب
(٣) الاغانى : ٣٠٥/١ دار الكتب

ويدع رواية الأغانى التى كررها فى ثلاثة مواضع ، ثم تساءل السيد :
« وهل من المعقول يا ترى أن ينشد الامام الصادق عليه السلام ما تغزل به ابن أبى ربيعة فى عمة أبيه فيطرب ويرتاح ؟.. وهل من الحق أن نتصوره أقل من هارون الرشيد وقد غضب غضبا شديدا ، فى نشوته ، على اسحاق الموصلى حينما غنى بين يديه بقول عمر حسب الرواية المغلوطة :

* قالت سعيدة والدموع ذوارف *

***

ومقطوعة رابعة لعمر ، قيل انها — هى الأخرى — فى سكينة بنت الحسين :

أحب لحبك من لم يكن	صفيا لنفسى ولا صاحبا
وأبذل نفسى لمرضاتكم	وأعتب من جاءكم عاتبا
وأرغب فى ود من لم أكن	الى وده قبلكم راغبا
ولو سلك الناس فى جانب	من الأرض واعتزلت جانبا
ليممت طيتها ، اننى	أرى قربها العجب العاجبا
فما ظبية من ظباء الأرا	ك تقرو دميث الربى عاشبا
بأحسن منها غداة الغميم	وقد أبدت الخد والحاجبا
غداة تقول على رقبة	لخادمها : يا احبسى الراكبا
فقالت لها : فيم هذا الكلام ؟..	وأبدت لها عابسا قاطبا
فقالت : كريم أتى زائرا	يمر بكم هكذا جانبا ! ..
شريف أتى ربعنا زائر	فأكره رجعته خائبا

غنى فى أبياتها الأول والرابع والخامس « ابن القفاص المكى » (١)

وقد أنكر « السيد الفكيكى » أن تكون قيلت فى سكينة بنت الحسين ، وظنها من مفتريات الدكتور زكى مبارك ، الذى قال فى دعواه

(١) الاغانى : ١٦٣/١

أنه اعتمد فى هذه الأخبار على الأغانى وزهر الآداب والأمالى (١) قال :

« ونحن أيضا رجعنا الى هذه الموضوعات الأدبية وغيرها من المصادر المعتبرة ، وأمهات الكتب فى لغة العرب وآدابها ومختلف تواريخها ... فلم نعثر على ما عثر عليه الدكتور مبارك بأن هذه المقطوعة قالها ابن أبى ربيعة فى سكينة ، ولم يذكر الأغانى من هذا الشعر سوى بيتين هما :

أحب لحبك من لم يكن صفيا لنفسى ولا صاحبا
وأبذل مالى لمرضاتكم وأعتب من جاءكم عاتبا

كما ان من عنى بجمع شعره وشرحه من الأدباء لم يذكروا ما ذكره الدكتور .. » (٢)

والحق ان الأبيات وردت كاملة فى (الأغانى) بالنص الذى أثبتناه هنا ، نقلا عن طبعة دار الكتب

وقد جىء بها عقب البائية :

* قالت سكينة والدموع ذوارف *

فى سياق الشعر الذى قاله عمر فى سكينة ، وصدرت بعبارة : « وقال فيها » عوداً بالضمير الى سكينة

ولكن الحق أيضا أن القصيدة لم ترد فى كل النسخ الخطية للأغانى ، وانما نقلت فى طبعة دار الكتب عن المخطوطة التيمورية . ولعل سقوطها من بعض النسخ ، هو الذى جعل السيد الفكيكى يؤكد « ان صاحب الأغانى لم يأت منها بغير بيتين اثنين ، ودون أن يشير الى أنها قيلت فى سكينة »

***

وهذه الصورة لسكينة ، تلتئم مع صورة عصر يمثله شعر عمر بن أبى ربيعة ، كما قال قائلون . فليس شىء من هذا الذى قيل فى بنت الحسين بمستبعد ، اذا صح ما ذكروا من أن المجتمع الحجازى قد أباح

(١) حب ابن أبى ربيعه وشعره : ١٩٣
(٢) السيد توفيق الفكيكى : السيدة سكينة : ٤٣

اسر أن يطلق لسانه فى شريفات قريش غير متحرج ولا هياب ، وصدق ما ذهبوا اليه من أن تغزل عمر باحدى هؤلاء ، كان شهادة معترفا بها لصاحبتها بالحسن والجمال ، تحرص كل حسناء على الظفر بها وتتكلف فى سبيلها ما يباح وما لا يباح ، حتى لتقول « الثريا بنت على » وقد سمعت قول عمر فى رملة :

وجلا بردها وقــد حسرته   نور بدر يضىء للناظرينا !

« أف له ما أكذبه !.. أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة ؟.. »

ورملة هذه هى بنت عبد الله بن خلف ، تزوجها عمر بن عبيد الله بن معمر ، فلما تزوج عليها عائشة بنت طلحة بعد مقتل مصعب ، قال الشاعر:

انعم بعــائش عيشــا غير ذى رنق

وانبــذ برملة نبــذ الجورب الخلق

وقالت له عائشة يوما فى لحظة صفاء : اعدد لى أيامك واذكر أفضلها . فعد لها يوم أبى فديك ويوم سجستان ، ويوم قطرى بفــارس ، ونحو ذلك . لكن عائشة استدركت عليه قائلة : « قد تركت يوما لم تكن فى أيامك هذه أشجع منك فيه !.. » سألها : « وأى يوم هو ؟ .. » قالت : « يوم أرخت رملة الستر عليها وعليك ! .. » (١)

وسكينة قد كانت ســيدة نساء عصرها ملاحة وظرفا وأناقة ، فربما يؤذى جمــالها — عند هؤلاء — أن يسكت عمر فلا يمنحها الشــهادة الرسمية المعترف بها وحدها فى سوق الجمــال ، بعد أن أقر له الشعراء بأنه أوصفهم لربات الحجال .

ثم ان شعره فى سكينة ، ليس فيه من الفحش ما يقــاس بشعره فى أخريات من حسان ذلك العصر حيث جعل مخادعهن — لا البيوت فحسب — ميدانا لمغامراته الغرامية ، ولن أنقل هنا رائيته فى النوار :

راح صـــــحبى ولم أحىّ النوارا

وقليــل لو عرجــوا أن تزارا

---

(١) الاغانى : ح ١١ ص ١٨٠ ومابعدها — ط دار الكتب

وانما أنقل هنا قصيدته القافية فى احدى شريفات المجتمع .

ولما التقينا واطمأنت بنا النوى
وغيب عنا من نخاف ونشفق
فقمن لكى يخليننا فترقرقت
مدامع عينيها وظلت تدفق
وقالت : أما ترحمننى ! .. لا تدعننى
لذى غزل جم الصبابة أخرق
فقلن : اسكتى عنا فلست مطاعة
وخلاك عنا — فاعلمى — بك أرفق !

ودااليته فى هند بنت الحارث المرية :

ولقد قالت لجارات لها ذات يوم ، وتعرت تبترد
أكما ينعتنى تبصرننى عمركن الله أم لا يقتصد
فتهاتفن وقد قلن لها : حسن فى كل عين من تود
حسد حملنه من أجلها وقديما كان فى الناس الحسد

أجل ، أى شىء فى تغزله بسكينة ، يقاس بهذا الذى نقلت أقله وأمسكت عن أكثره ! ..

وأى ضير عليها ، وهذا المجتمع الذى عاشت فيه قد طاب له — فيما قالوا — أن يصغى الى معازف المغنين وحناجر المغنيات ، وهى تنطلق فى مهد الاسلام ودار الهجرة ، شادية بغزل عمر فى بنت الحسين ، وأخت عبد الملك وبنته ، وامرأة سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، وعائشة بنت طلحة ، ولبابة بنت عبد الله بن عباس ، ومن لا أحصى هنا من أسماء العقائل الكريمات !..

بلى ، ان صورة سكينة فى هذه الأخبار والأشعار ، تأتلف مع صورة المجتمع الحجازى فى عصرها كما تمثله أعلام مؤرخى الأدب

على أن الصورة الأولى لن تكتمل ، الا اذا أضفنا اليها هنا ، مجالس الطرب والغناء التى قيل أن « سكينة » كانت تعقدها فى مجلسها بدار

الهجرة ، على بعد خطوات من مثوى جدها الرسول ، فى مسجده الشريف ::

من تلك المجالس ، ما رواه صاحب الأغانى عن المغنين الأربعة المقدمين فى عصر سكينة : ابن سريج ، والغريض ، ومعبد الحجازيين ، وحنين الحيرى العراقى . قيل ان الثلاثة الحجازيين اجتمعوا يوما فتذاكروا أمر حنين الحيرى وكتبوا اليه يقولون : نحن ثلاثة بالحجاز وأنت وحدك بالعراق . فأنت أولى بزيارتنا . فشخص اليهم ، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره فخرجوا يتلقونه فلم يُرَ يومٌ أكثرَ حشرا ولا جمعا من يومئذ . ودخلوا المدينة فلما صاروا فى بعض الطرق ، قال لهم معبد : صيروا الىّ . فقال ابن سريج : ان كان لك من الشرف والمروءة مثل ما لمولاتى سكينة بنت الحسين عطفنا اليك . فقال : ما لى من ذلك شىء

وعدلوا الى منزل « سكينة » فلما دخلوا اليها أذنت الناس اذنا عاما ، فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا ، ثم انهم سألوا حنينا أن يغنيهم صوته الذى أوله :

هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب

وكان حنين قد قال لهم : ابدءوا أنتم . فقالوا : ما كنا لنتقدمك ، ولا نغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت

فلما غناهم اياه ، وكان من أحسن الناس صوتا ، ازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ، فسلموا جميعا وأخرجوا أصحاء ، غير « حنين » فانه مات تحت الهدم

وقالت سكينة :

— لقد كدر علينا حنين سرورنا !.. انتظرناه مدة طويلة ، فلما جاء مات ، كأنا والله كنا نسوقه الى منيته (١)

ومجلس آخر رواه صاحب الأغانى قال :

« كان ابن سريج قد أصابته الريح الخبيثة وآلى يمينا ألا يغنى ، ونسك ولزم المسجد الحرام حتى عوفى . ثم خرج وفيه بقية من العلة ،

(١) الاغانى ج ١٥ ساسى — وانظر معه مافى (عيون الاخبار : ٤/٩٠)

فأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وموضع مصلاه ، فلما قدم المدينة نزل على بعض اخوانه من أهل النسك والقراءة ، فكان أهل الغناء يأتونه مسلمين عليه فلا يأذن لهم بالجلوس والمحادثة ، فأقام بالمدينة حولا حتى لم يعد يحس من علته بشىء ، وأراد الشخوص الى مكة ، وبلغ ذلك سكينة بنت الحسين رضى الله عنه ، فاغتمت اغتماما شديدا وضاق به ذرعها ، وكان أشعب يخدمها ، وكانت تأنس بمضاحكته ونوادره . فقالت لأشعب : ويلك !.. ان ابن سريج شاخص وقد دخل المدينة منذ حول ، ولم أسمع من غنائه قليلا ولا كثيرا ، ويعز ذلك على ، فكيف الحيلة فى الاستماع منه ولو صوتا واحدا !

فقال لها أشعب : جُعلت فداك ، وانّى لك بذلك ، والرجل اليوم زاهد ولا حيلة فيه ، فارفعى طمعك وامسحى بوزك تنفعك حلاوة فمك .

فأمرت بعض جواريها فوطئن بطنه حتى كادت أمعاؤه أن تخرج ، وخنقته حتى كادت نفسه أن تتلف ، ثم أمرت به فسحب على وجهه حتى أخرج من الدار اخراجا عنيفا على أسوأ الحالات ، واغتم غما شديدا ، وندم على ممازحتها فى وقت لا يصلح لذلك

ومضى حتى أتى منزل « ابن سريج » ليلا فطرقه ، فقيل من هذا ؟ .. فقال : أشعب . ففتحوا له ، فرأى ابن سريج على وجهه ولحيته التراب ، والدم سائلا من أنفه وجبهته ، وثيابه ممزقة . فهال ابن سريج ما رأى ، وسأله : « ما هذا .. ويحك ؟ ! .. »

فلما قص عليه القصة ، قال له : انا لله وانا اليه راجعون ، الحمد لله الذى سلمك !.. لا تعودن الى هذه السيدة أبدا

قال أشعب : فديتك .. هى مولاتى ولا غنى لى عنها . ولكن هل لك حيلة فى أن تصير اليها وتغنيها فيكون ذلك سببا لرضاها عنى ؟.. قال ابن سريج : كلا والله ، لا يكون ذلك أبدا بعد أن تركته !

قال أشعب متوسلا : قد قطعت أملى ورفعت رزقى وتركتنى حيران بالمدينة لايقبلنى أحد وهى ساخطة على ، فالله َ الله فىّ ، وأنا أنشدك الله

الا تحملت هذا الاثم فى !

فأبى ابن سريج أن يجيب

ولما رأى أشعب اصراره ، صرخ صرخة آذن لها أهل المدينة ، ونبه الجيران من رقادهم ، ثم سكت فلم يدر الناس ما القصة عند خفوت الصوت الذى راعهم

وسأله ابن سريج : ويلك !.. ما هذا ؟

فأجاب متوعدا : لئن لم تصر معى اليها لأصرخن صرخة أخرى لايبقى بالمدينة أحد الا صار بالباب ، ثم لأفتحنه ولأرينهم ما بى ، ولأعلمهم انك أردت سوءا بغلامك — وكان ابن سريج مشهورا بذلك — فمنعتك وخلصت الغلام من يديك حتى فتح الباب ومضى ، ففعلت بى هذا غيظا وأسفا ، وانك انما أظهرت النسك والقراءة لتظفر بحاجتك من الغلام ..

فقال ابن سريج فى جزع : أعزب أخزاك الله ..

فأقسم أشعب بكل الايمان ، لئن لم ينهض معه ابن سريج فى وقته هذا ، ليفعلن ما به أنذر ..

واذ رأى ابن سريج منه الجد ، خرج معه فلما صاروا فى بعض الطريق ، عاد يرجوه أن يمضى عنه ويدعه لشأنه ، فقال أشعب مهددا :

— والله لئن لم تأت معى لأصيحن الساعة حتى يجتمع الناس ، ولأقولن انك أخذت منى سوارا من ذهب لسكينة ، على أن نجيئها فتغنيها سرا ، ثم كابرتنى عليه وجحدتنى وفعلت بى هذا الفعل ..

فمضى معه ابن سريج مستسلما ضائع الحيلة ، حتى جاءا بيت سكينة فأذنت لهما فى الدخول ، وقالت لابن سريج :

— يا عبيد ، ما هذا الجفاء ؟

قال : قد علمت — بأبى أنت — ما كان منى ..

قالت : أجل ..

ثم تحدثا ساعة ، وقص عليها ابن سريج ما صنع به أشعب ، فضحكت

وقالت : « لقد أذهب ما كان فى قلبى عليه » وأمرت لأشعب بدنانير وكسوة

ثم قال لها ابن سريج : أتأذنين لى بأبى أنت ؟

قالت : وأين ؟

فقال : الى المنزل

قالت : برئت من جدى ان برحت دارى ثلاثا ، وبرئت من جدى ان أنت لم تغن ان خرجت من دارى شهرا ، وبرئت من جدى ان أقمت فى دارى شهرا ان لم أضربك فى كل يوم فيه عشرا ، وبرئت من جدى ان حنثت فى يمينى أو شفّعت فيك أحدا

صاح ابن سريج مستسلما : وا ذهابَ ديناه !.. وا فضيحتاه !.. ثم اندفع يغنى :

أستعين الذى بكفّيه نفسى ورجائى ، على التى قتلتنى

فنزعت سكينة من عضدها سوارا من ذهب ، زنته أربعون مثقالا ، وأقسمت عليه الا لبسه ، ثم بعثت أشعب الى « عزة الميلاء » تخبرها بوجود ابن سريج عندها وترجوها أن تزورها

فما أسرع ما جاءت عزة ، وأقامت ليلتها ببيت السيدة ، فلما كان اليوم الثانى هيىء مجلس الغناء ، وقالت سكينة :

— يا عزة ، ان رأيت أن تغنينا فافعلى ..

فغنت عزة لحنها فى شعر عنترة العبسى :

حيّيت من طلل تقادم عهده
أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

ان كنت أزمعت الفراق فانما
زمّت ركابكم بليل مظلم

فهتف بها ابن سريج : أحسنت والله يا عزة

ونزعت سكينة سوارها الثانى وطلبت الى عزة أن تلبسه ، ثم قالت لابن سريج : غننا ..

قال : حسبك ما سمعت البارحة ..

قالت : لابد أن تغنينا فى كل يوم لحنا ، فلما رأى انه لا يقدر على الامتناع ، غنى :

قالت من انت على ذكر فقلت لها
أنا الذى ساقه للحين مقدار
قد حان منك — فلا تبعد بك الدار —
بين ، وفى البين للمتبول اضرار

وفى اليوم الثالث ، غنت عزة لحنها فى شعر الحارث بن خالد :

وقرّت بها عينى وقد كنت قبلها
كثير بكاء مشفقا من صدودها

قال ابن سريج : والله ما سمعت مثل هذا قط حسنا ولا طيبا .

ثم أمرته سكينة فغنى :

أرقت فلم أنم طربا وبتّ مسهّدا نصبا
لطيف أحبّ خلق الله انسانا ، وان غضبا
فلم أردد مقالتها ولم أك عاتبا عتبا
ولكن صرّمت حبلى فأمسى الحبل منقضبا

فقالت سكينة : قد علمت ما أردت بهذا ، وقد شفعناك ولم نردك ، وانما كانت يمينى على ثلاثة فاذهب فى حفظ الله وكلاءته وأمرت له ولعزة بحلتين » (١)

***

أما وقد اكتملت صورة الهاشمية الحسناء فى اطار العصر الذى يمثله غزل عمر فيما قالوا ، والذى أوجب مؤرخو الأدب علينا أن نرجع الى ديوانه اذا شئنا أن نفهم المجتمع الحجازى على حقيقته ، وأن ندرك حقيقة الصلة بين الرجال والنساء فيه .

أما وقد اكتملت هذه الصورة ، فان لنا بعد ذاك وقفة هنا ، نحاول فيها أن نتبين وجه الحق فى كل هذا الذى قيل ..

(١) الاغانى : ١٢٥/١٥ ساسى

عود على بدء

ونجرؤ بادىء ذى بدء ، على معاودة النظر فى تلك المسلّمات التى قررت أن المجتمع الحجازى قد كان حقا على ما يصوره غزل « عمر » وأمثاله

وليست رغبة الدفاع عن بنت الحسين ، هى التى تدفعنا الى هذه المعاودة ، بقدر ما يلزمنا بها الحرص على الحق كيف كان

أصحيح ان ذلك المجتمع قد انصرف عن الاشتغال بالأمور العامة التى أبعد عنها عمدا ، وعكف على حياته الخاصة يبليها فى العبث والمجون ؟..

بعض هذا يمكن أن يقال . بل كله أيضا يمكن أن يقال فى طائفة بعينها من الشباب المترفين ، لو أحصيناهم فى كتب التاريخ الأدبى لما جاوزوا العشرات ، وبقيت الى جانبهم كثرة جادة ، شاركت فى الحياة العامة ، فكريا وسياسيا وحربيا مشاركة وعاها التاريخ

ومن الاسراف أن يقال ان الحجاز كان بمعزل عن الشئون الكبرى للدولة على النحو الذى وصفه مؤرخو الأدب ، فى تعليلهم لشيوع المجون وازدهار فن الغناء فيه ، وان التاريخ ليشهد بأن الحجاز كان أيضا مركز المعارضة القوية التى دوخت الأمويين وكلفتهم أفدح الأثمان ، ولم تمكنهم من الأمر الا بعد أن رجموا الكعبة بالمنجنيق . وقد اعترف الأستاذ الدكتور طه بأن « الشباب الحجازى جاهد جهادا عنيفا فى سبيل الاحتفاظ بمنزلته التى تركها له أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فما كانت ثورة ابن الزبير ، وما كانت ثورة الحرة ، وما كان خروج الحسين ابن على الا مظاهر لهذا الجهاد ... ولكن هذا الشاب الحجازى لم يوفق »

ومع التسليم بأن هذه الثورات المتتابعة قد أخمدت ، الا أن من الحق أن نذكر أن ثورة ابن الزبير مثلا ، لم يقض عليها الا سنة ٧٣ هـ ، أى

بعد توبة عمر بن أبى ربيعة ، التى تابها وهو فى الأربعين من عمره على ما قال مؤرخوه ، والمعروف انه ولد فى أخريات ذى الحجة من سنة ٢٣ هـ -- يوم مقتل الفاروق عمر بن الخطاب ـــ فيكون قد بلغ الأربعين فى سنة ٦٣ هـ ، والحجاز كله ينـــاصب بنى أميـــة العداء ، ويأبى أن يقر لهم بالخلافة ، وحركة ابن الزبير فى عنفوانها ، وستظل كذلك الى عام ٧٣ هـ أى بعد توبة عمر بنحو عشر سنين ـــ فكيف يهون التسليم بأن عمر يمثل المجتمع الحجازى فى تلك الفترة ؟.. وان الحجاز على عهده كان بمعزل عن الحياة العامة ، منصرفا الى اللهو والمجون ؟.. وأى شىء تكون حركة « ابن الزبير » التى استمرت بعـــد توبة عمر نحو عشر سنين ، تقض مضاجع الأمويين وتحبسهم فى الشام وتزلزل الأرض من تحتهم ؟.. أى شىء تكون هذه الحركة التى كانت غولا ، فيما وصف الأستاذ العلايلى « وكادت تبتلع الدولة الأموية والعنصر الأموى » (١)

ووقعة الحرة ، التى أشار اليها أستاذنا الدكتور طه ، قد كانت فى سنة ٦٣ هـ وفيهـــا بلغ « عمر » الأربعين من عمره ، واختتم مرحلة المجون والطيش ، أو كما قالوا : « ختم عهد الفتك وبدأ عهد النسك » (٢)

فاطلاق القول بأن الحجاز لم يشـــارك فى الحيـــاة السياسية ، زمان الأمويين ، يجب أن يؤخذ فى كثير من التحفظ والحرص ، والا فقد كان الحجاز ، ابان عمر وأمثاله ، مركز المعارضة القوية التى تزعمها الحسين ، ثم عبد الله بن الزبير من بعده ، وقد وقفت مكة تجاه الأمويين فى دمشق ، موقف الخصم العنيد ، وثبتت فى المعركة سنين عددا قبل أن تهزم بعـــد حصار مجهد (٣) . كما ظل لها بعد ذلك كله ، نفوذها الروحى يبسط ظله على الدولة الكبرى

وكان هذا النفوذ من العوامل التى قضت آخر الأمر على دولة بنى أمية ، وأقامت الدولة العباسية ، على دعوة دينية ، ترد الأمر الى أصحابه

---

(١) أشعة من حياة الحسين : ٢٨
(٢) الاغانى : ٧٧/١ ط دار الكتب
(٣) تاريخ الطبرى : الجزء السابع ط مصر

من آل البيت ..

وازدهار الغزل والغناء فى مكة والمدينة فى ذلك العصر ، أمر لا نملك أن نشك فيه ، ولكن الذى نشك فيه ، هو أن هؤلاء الشعراء الغزليين ، يصورون بشعرهم الماجن حياة ماجنة !..

أصحيح ان الحجاز كان اذ ذاك « قد أسلم الى طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين ، من بينهم عمر ، استأجرهم الأمويون للقضاء على النفوذ الروحى الخطر ، لعاصمتى الدين » على ما ذهب اليه الأستاذ العلايلى ؟ (١)

لا سبيل الى انكار أن السلطة الدينية للحجاز كانت خطرا يقدره الأمويون . لكن تقديرهم لخطر النفوذ الدينى للحجاز ، لم يكن بحيث ينسيهم انهم بعد فى حاجة اليه لقيام الدولة التى ورثت ملك الأباطرة والأكاسرة والفراعين باسم الاسلام ، فالقضاء على الحرمة الدينية لمكة والمدينة ، يؤدى فى الوقت نفسه الى القضاء على الدولة التى يتولى بنو أمية أمرها . والثابت تاريخيا ان الأمويين كانوا يعتمدون على عصبية القبيلة فى منازعتهم لبنى هاشم ، لكن هذا لم يغنهم قط عن الاعتماد على الصفة الدينية فى مواجهة الأعداء المتربصين على الحدود ، وفى استنفار المسلمين للجهاد ، فى بلاد الروم والمغرب الافريقى

وقد ظل الخلفاء منهم حريصين على الخروج الى مكة فى موسم الحج عاما بعد عام ، استظهارا بهذه القوة الروحية التى كانوا فى حاجة اليها وهم يحكمون ويحاربون ويفتحون باسم الدين الاسلامى . والأستاذ العلايلى يعرف قبل أن أعرف ، ان القولة الخبيثة « بأن المروانيين فكروا فى صرف الناس عن المقدسات الاسلامية التى تنزل من الاسلام منزلة الشعيرة ، بانشاء المسجد الأموى بأبهته العظيمة فى دمشق ، وان هذه أيضا كانت نية عبد الملك بن مروان بأناقته فى تشييد المسجد الأقصى » هذه القولة الخبيثة لم يقلها الا عدو الاسلام « الأب لامانس اليسوعى »

(١) اشعة من حياة الحسين : ٢٩

ولم يؤيدها بشاهد أو نص . فخوف الأمويين من نفوذ مكة والمدينة الروحى ، يجب ألا يبعد بنا الى ذلك الظن المتمادى ، بل يجب ألا ينسينا حاجتهم الى الاستظهار بما يخافون منه . كما ان التسليم بأنهم مكنوا لأبناء المهاجرين والأنصار من حياة الفراغ والترف ، لا يجوز أن يذهب بنا بعيدا الى القول باستئجار طوائف المخنثين والشعراء الماجنين لافساد مكة والمدينة ، والا فقد كان من هؤلاء الشعراء ، من هو من صميم بيوت الأنصار وحزب الامام على ، كالأحوص ، وعبيد الله بن قيس الرقيات . وحكاية يزيد والأخطل ، لا تعين على ما ذهب اليه الأستاذ ، فما هى الا حكاية فردية كان «يزيد» فيها موتورا لا بادئا واترا . هى كما رواها المبرد فى كتاب الكامل : « أراد عبد الرحمن بن حسان بن ثابت أن يكيد له فشبب بأخته رملة بنت معاوية وقال فيما قال :

رمل هل تذكرين يوم غزال
اذ قطعنا مسيرنا بالتمنى ؟

اذ تقولين : عمرك الله هل شىء
وان جلّ ، سوف يسلبك عنى ؟

فغضب يزيد ، وأمر كعب بن جعيل التغلبى بهجاء الأنصار ..

فقال كعب : أ أهجو الأنصار ؟.. أرادىّ أنت الى الكفر بعد الاسلام ؟.. ولكن أدلك على غلام من الحى نصرانى ، كأن لسانه لسان ثور — يعنى الأخطل — فما كاد الأخطل يقول رائيته المشهورة ، فى هجاء الأنصار :

خلوا المكارم لستم من أهلها
وخذوا مساحيكم بنى النجار

ذهبت قريش بالسماحة والندى
واللؤم تحت عمائم الأنصار

حتى ثار الأنصار مغضبين ، ودخل النعمان بن بشير الأنصارى على معاوية فحسر عمامته عن رأسه ثم قال : يا معاوية ، أترى لؤما . فقال :

ما أرى الا كرما . واستطرد النعمان منشدا :

معاوىَ الا تعطنا الحق تعترف
لحَى الأزد مسدولا عليها العمائم

أيشتمنـا عبـد الأراقم ضـلَّةً
فماذا الذى تجدى عليك الأراقم ؟ ..

فما لى ثأر دون قطع لسـانه
فدونك من ترضيه عنك الدراهم

قالوا : فأمر معاوية بدفع الأخطل اليه ليقطع لسانه ، لولا انه استجار بيزيد ، فما زال بالنعمان يسترضيه ويعتذر اليه حتى كفَّ .. » (١)

فالقصة — كما رواها المبرد — لا يمكن أن تنهض دليلا على دعوى عامة ، تقول بأن الأمويين منذ عهـد معاوية كانوا يستأجرون الشعراء للقضاء على الطبقة الدينية فى المدينة ، بل لعلها أولى بأن تشهد بأن النفوذ الدينى للأنصار ، كان من القوة بحيث يغلب سلطان بنى أمية ، ويجعل شاعرا مثل كعب ، يأبى أن يجيب يزيد ، ويرى فى هجائهم ردا الى الكفر بعد الاسلام ، كما تشهد بأن معاوية لم يرض قط عن موقف يزيد ، بل أمر بأن يدفع الأخطل الى النعمان ليقطع لسانه

ولست أدرى كيف فات الأستاذ العلايلى مثل هـذا ، وانه ليعلم أن الاباحية الماجنة لم تقتصر على المدينة ومكة ، بل توغلت فى دمشق ذاتها ، ولم يعصم منها أمثال يزيد بن معاوية ، والوليد بن يزيد ، فهل يا ترى استأجر أهل مكة والمدينة ، من أغرى خلفاء بنى أمية بالمجون والعبث ؟..

وهل استأجروا « الأحوص الانصارى » ليقول فى عاتكة بنت عبد الله ابن يزيد بن معاوية ، زوجة عبد الملك بن مروان :

يا بيت عاتـكة التى أتعزل
حـذر العدا ، وبه الفؤاد موكَّل

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل : ٢٠٦/٢ ومابعدها

انى لأمنحك الصــدود واننى
قسما اليك ، مع الصدود لأميل (١)

أو هل استأجروا « وضاح اليمن » ليقول فى « أم البنين » ما قال مما نتقل بعضه فى فصل يلى ؟

وماذا عن غزل عمر نفسه ، بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وأخته وغيرهما من سيدات البيت الأموى ؟

***

ان المجون قـد استشرى فعلا فى الحجاز ، لكنه استشرى كذلك فى الشام ، ورأيناه يستشرى من بعد فى بغداد . والأستاذ الدكتور طه نفسه يقرر « ان شباب الحجاز لم يكن يلهو الا بمقدار وكانت مكانته الدينية والاجتماعية وخوفه من الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود ، أما شباب بنى أمية فلم يكد يعرف اللهو حتى اندفع فيه الى غير حد ، لا يخشى مراقبة ولا يحفل بسلطان » (٢)

ولو كان الخلفاء هم الذين يغرون شبـاب الحجاز بالمجون ويعينونهم عليه ، لما كان ثمة خوف يعصمهم من مجاوزة الحدود ، ولفرض الخلفـاء رقابتهم الصارمة على شباب بنى أمية ، كى يعصموهم ـ لا شباب الحجاز ـ من مجاوزة الحدود !

وقد نقلت الينا فعلا ، أخبار تشهد بأن خلفاء بنى أمية كانوا يتدخلون أحيانا ، ليردعوا شعراء الغزل الماجن فى الحجاز ، اذا تمادوا فى عبثهم ، وجاوزوا الحدود ، وان أهل المدينة أنفسهم كانوا يلجئون الى الخليفة الأموى أحيانا ، ليحمى نساءهم من ألسنة الشعراء .

ففى رواية لمحمد بن سلام ، نقلها أبو الفرج فى أغانيه : « ان الأحوص كان ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ، ويتغنى فى شعره معبد ومالك ، ويشيع ذلك فى النـاس ، فنهى فلم ينته ، فشكوه الى عامل

(١) سمط اللآلى للبكرى : ١/٢٥٩
(٢) حديث الاربعاء : ٢٣٧

سليمان بن عبد الملك على المدينة ؛ وسألوه الكتاب فيه إلى سليمان ففعل . فكتب سليمان الى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ، ويقيمه على البلس (١) للناس ، ثم ينفيه الى دهلك — وهى بلدة حرجة حارة ، تقع فى جزيرة فى بحر اليمن ، بين بلاد اليمن والحبشة ، وكانت منفى لمن يسخط عليه بنو أمية — فنفذ الوالى أمر سليمان فى الأحوص ؛ ولبث الشاعر فى منفاه طوال عهد سليمان ؛ فلما مات وخلفه عمر بن عبد العزيز من بعده ، كتب اليه الأحوص ، يستعطفه ويستأذنه فى القدوم ، ويمدحه بقصيدة استشفع فيها بما بينهما من قرابة فقال :

أيا راكبا اما عرضت فبلغن
هديت ، أمير المؤمنين رسائلى

وقل لأبى حفص اذا ما لقيته
لقد كنت نفاعا قليل الغوائل

وكيف ترى للعيش طيبا ولذة
وخالك أمسى موثقا فى الحبائل

« وأتى رجال من الأنصار عمر بن عبد العزيز ، فكلموه فى الأحوص ، وسألوه أن يدعه يخرج من منفاه ، وقالوا له فيما قالوا : قد عرفت نسبه وموضعه وقدمه ، وقد أخرج الى أرض الشرك فنطلب اليك أن ترده الى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه . فسألهم عمر : فمن الذى يقول :

فما هو الا أن أراها فجاءة
فأبهت حتى ما أكاد أجيب ! ..

قالوا : الأحوص ..

قال : فمن الذى يقول :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم ما درت حيث أدور

(١) البلس جمع البلاس ، وهو البساط من شعر — معربة

وما كنت زوّارا ولكن ذا الهوى
اذا لم يزر لا بد أن سيزور

قالوا : الأحوص ..

قال : فمن الذى يقول :

كأن « لبنى » صبير غادية
أو دمية زينت بها البيع

الله بينى وبين قيّمها
يفر منى بها ، وأتبع

قالوا : الأحوص ..

قال عمر : بلى ، الله بين قيّمها وبينه ، فمن الذى يقول :

ستبلى لكم فى مضمر القلب والحشا
سريرة حب يوم تبلى السرائر

قالوا : الأحوص

قال : ان الفاسق عنها يومئذ لمشغول، والله لا أرده ما كان لى سلطان . فبقى هناك الى ما بعد وفاة عمر » (١)

وما دام كتاب « الاغانى » هو مرجعنا الأول فى أخبار شعراء المجون بالحجاز فى النصف الأول من العصر الأموى ، فيجب ألا نقبل مروياته عن عبث عمر وأضرابه ، الا ومعها المرويات الأخرى التى تدل على تحرج المجتمع الحجازى من اسراف المسرفين منهم ، وتدخل خلفاء بنى أمية ، حين يجاوز اسرافهم الحدود .

***

وأيا ما كان حال ذلك المجتمع ، فليس يهون علينا أن نتصور ان الصلة بين رجاله ونسائه يجب أن تلتمس عند زعيم الغزليين عمر بن أبى ربيعة ، فان مجتمعا هبط من التحلل الى ذلك الحضيض الدانى ، وتهاون فى عفة النساء وطهارة الأرحام الى حد الاهدار ، وأباح لمثل عمر بن عبد

(١) الاغانى : ٢٤٨/٤ ط الدار

العزيز ومصعب بن الزبير ، وعبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، أن يتزوجوا من معشوقات ابن أبي ربيعة وبطلات مغامراته ، مجتمع كهذا لا يمكن أن تسمح له الحياة بالبقاء ، أو يأذن له التاريخ بمكان فيه ولو على الهامش

وأيا ما كانت عزلة المجتمع الحجازى عن الشئون العامة للدولة ، فان هذه العزلة المدعاة ، لم تعطل صلات المصاهرة ما بين الشام والحجاز ، ومن شاء فليرجع الى « نسب قريش » ليقف على مدى نشاط هـذه المصاهرة التى ربطت خلفاء بنى أمية ببنات هاشم ، رباطا لا ينفصم ، ووصلت ما بين الحجاز والشام بالصلة التى لا تنحل ، وساطت دماءهما حتى ما تتزايل ، وقد بلغت الدولة العربية فى النصف الأول من العصر الأموى أوج قوتها ، فكيف يتصور العقل أن تقوم لهذه الدولة قائمة ، لا تحميها من أعدائها فحسب ، بل تمكن لها من غزو القسطنطينية وفتح المغرب الافريقى ، وهى التى أتلفها التحلل ، وطاب لها أن يشهر « عمر » بخير نسائها ، وأن يرفع المغنون عقائرهم بغزلياته فيهن ، فى البلد الحرام مهد الاسلام ، وفى المدينة دار الهجرة ، قبل أن يبلى قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم !

لقد صدقنا ان الخصومة الحزبية كانت تتخذ من أعراض النساء هدفا للكيد وسلاحا فى المعركة ، صدقنا أن يقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ما قال فى رملة بنت معاوية ، وربما أمكن كذلك أن نصدق أن يقول عبيدالله بن قيس الرقيات ، فى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وزوجة الوليد بن عبد الملك من قصيدة له يمدح بها مصعب بن الزبير :

الا هزأت بنـــا قرشــ ـــية يهتز موكبهـــا
رأت بى شـــيبة فى الرأ س منى ما أعيبهـــا
ومثلك قد لهوت بهـــا تمـام الحسن أعيَبها
لها بعــل غيـــــور قا عد بالبـــاب يحجبهـا
يرانى هكـــذا أمشى فيوعدها ويضربهـــا

ظللت على نمارقها أفديها وأخلبها
أحدثها فتؤمن لى فأصدقها وأكذبها
فدع هذا ولكن حا جة قد كنت أطلبها
الى أم البنين متى يقربها مقربها
أتتنى فى المنام فقلـ ـت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها ومال على أعذبها
شربت بريقها حتى نهلت وبت أشربها
وبت ضجيعها جذلا ن تعجبنى وأعجبها
فكانت ليلة فى النو م نسمرها ونلعبها

....

أجل ربما أمكن أن نصدق أن عبيد الله قال هذا فى أم البنين ، ثم عاد فأرضاها « وبلغ منها مبلغا حسنا حتى شغفت به وكسبت له أمان عبد الملك بن مروان » بشفاعة لديها من عبد الله بن جعفر بن أبى طالب !

ولكن الذى لا يهون أن نصدقه ، أن يدع المجتمع الاسلامى عمر بن أبى ربيعة يشهِّر بشريفات قريش ، وبنات الأئمة والخلفاء ، عن غير خصومة حزبية ، وأن يبيح له أن يجعل من بيوتهن — بل من مخادعهن — مجالا لمغامراته ، ثم يطرب اذ يسمع المغنين والمغنيات يشدون بهذا الغزل الماجن !

كلا وكلا ...

وانما الذى يصح عندنا ، هو أن غزليات عمر وأمثاله ، كانت هزلا لا شىء من الجد فيه ، وان مغامراته وقصصه الغرامية كانت من نسج الخيال وليست من الواقع فى شىء ، وقد عرفه مجتمعه يقول ما لا يفعل ، فتركه يهذى بالشعر كما شاء ، دون أن يخطر له أن بنات هاشم ونساء قريش ، قد شغفن به حبا ، وأبحنه ما لا يباح !

واذا كان « عمر » قد اختار أسماء غادات عصره وحسان قومه ، لقصصه وقصائده ، فما كان هذا الصنيع بالذى يمس سمعتهن أو يؤذى كرامتهن فى مجتمع يعرف « عمر » شاعرا يهيم فى وادى الخيال ، يتصيد

منه مشاهد وصورا ليست من الواقع فى شيء أو بعض شيء ؛ ومن ثم لم تضق الحسان باختيار عمر أسماءهن فى قصائده التى مجّد فيها الجمال وهام بالحسن ، بل ربما وجدن فى ذلك الصنيع مظهر اعتراف بجمالهن ، واعلان عن ملاحتهن ، وهن مطمئنات الى أن المجتمع لا يأخذ قصص عمر مأخذ الجد ، ولا يسيء الظن بمن اختار عمر اسمها لقصيدة من قصائده

وأى حسناء لا يغرها الثناء ؟

أى حسناء لايزدهيها ، أن يقترن اسمها بقول عمر :

ذات حسن ان تغب شمس الضحى
فلنا من وجهها عنا خلف !

أجمع الناس على تفضيلها
وهواهم فى سوى ذاك اختلف

أى حسناء ، لا يطربها أن تردد معازف المغنين اسمها فى مثل قوله :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد
وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة
انما العاجز من لا يستبد !

مجرد أسماء ، حفّ بها جمال من يحملنها ، وهن بمنأى عن الريبة وسوء الظن

أجل مجرد أسماء ، وربما هام عمر مع خياله ، واشتط به الوهم ، فتمثل صاحبة الاسم فى جوه العابث ، وتمادى فى الخضوع لسيطرة شخصيتها الحقيقية على خياله ، فجاءت صورتها فى قصصه ، تشى بمعالم هذه الشخصية الحقيقية ، واذ ذاك كان المجتمع ينكر ، ويغضب ، ويوقفه عند حده فيقف !

فعل ذلك حين هدده بنو تيم بالشر ، لما رأوا فى تغزله باسم عائشة ، ملامح من بنت طلحة ...

وفعل ذلك حين هدده بنو أمية بالويل ، عندما رأوا فى تغزله باسم

فاطمة ، ملامح بنت عبد الملك !

واستحيا عمر من قدامة بن موسى ، حين شاقه أن يرى أخته زينب ، بعد أن تغزل باسمها على السماع

وأقسمت « الثريا بنت على » للوليد بن عبد الملك أن عمر كان عفيفا ، وهو الذى ملأ ديوانه باسمها ، وترك للرواة من بعده أن ينسجوا من قصائده فيها أقاصيص وحكايات !

وكف عن التعرض لزوجة أبى الأسود الدؤلى ، وكانت جميلة ، فأراد أن يكلمها فعاتبه أبو الأسود مرة فلما عاد زجره بقوله :

وانى ليثنينى عن الجهـــــل والخنا
وعن شتم أقوام خـــلائق أربع

حيـــاء ، واســـلام ، وبقيا ، وأننى
كريم ومثـــلى قد يضر وينفـــع

فشـــتان ما بينى وبينـــك اننى
على كل حال أســـــتقيم وتظلع

فلما لم يرعو « عمر » واعترض زوجة أبى الأســـود حين عادت الى المسجد ، خرج معها أبو الأسود مشتملا على سيف ، فما كاد « عمر » يراهما حتى أعرض عنها متمثلا :

تعـــدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقى صولة المستأســـد الحامى (١)

كلا .. لم يكن المرعى مباحا لعمر يقول فيه ما يقول ويفعل ما يفعل ، دون أن يتصدى له من يزجره ويرده الى التزام الحدود فيرعوى ، ولو لم يرعو لخرج له بنو تيم وغير بنى تيم بالسلاح ، ولأنفذ الحجاج وغير الحجاج وعيده فيه ، أو لاستعدى أهل الحجاز عليه الخليفة بدمشق ، كما فعلوا حين شبب الأحوص بنساء المدينة ــ عن غير صلة ــ ونُهى فلم ينته

كما لم يكن المرعى مباحا لغير عمر من شعراء الغزل الماجن ، وقد نقل

---

(١) الاغانى : ١٤٨/١

أستاذنا الدكتور طه قصة « وضاح اليمن » الذى دفن حيا ، بعد أن تغزل بأم البنين ..

وأشفق الحارث بن خالد المخزومى (١) من الزواج بعائشة بنت طلحة بعد أن تغزل فيها ، حتى لا تقول قريش ان غزله فيها كان لريبة (٢)

وكاد ابن أبى ربيعة نفسه ، يلحق بالأحوص ، لولا أن تداركته رحمة ، ففى أخبارهم أن سليمان بن عبد الملك حج بالناس وهو خليفة ، فاستدعى عمر وسأله : ألست القائل :

فكم من قتيل ما يُباء به دم
ومن غَلق رهنا اذا لفَّه مِنى

ومن مالىء عينيه من شىء غيره
اذا راح نحو الجمرة ، البيضُ كالدمى

أوانس يسلبن الحليم فؤاده
فيا طول ما شوق ويا طول مجتلى !

قال : نعم . قال سليمان : لا جرم والله لا تحضر الحج العام مع الناس . وأخرجه الى الطائف (٣)

***

لكن المأساة أن أكثرنا قد صدقوا كل ما قال عمر ، وصدقوا معه أولئك القصاصين الذين راحوا ينسجون الحكايات حول هذه القصيدة أو تلك من غزلياته ، وهى قصص لا نشك فى أنها اخترعت بأخرة ، كما قال الأستاذ الدكتور طه حسين بحق »

وقد عاد بعد الذى قرره وأكده من تمثيل شعر عمر لعصره ، ولصلة النساء بالرجال فى مجتمعه ، عاد يؤكد أن « صلة عمر بأخت عبد الملك وبنته ، وبسكينة بنت الحسين ولبابة بنت عبدالله بن عباس ، وعائشة بنت

---

(١) هو الحارث بن خالد بن العاصى بن هشام بن المغيرة المخزومى . أنظر نسبه وحديثه مع عائشة ، فى (نسب قريش : ٣١٣)

(٢) الاغانى : ٣٢٧/٣ دار الكتب ــ وانظر معه (نسب قريش : ٣١٤)

(٣) الاغانى : ٦٨/٩ الدار

مفلحة ، كانت طاهرة كل الطهر ، بريئة كل البراءة من الاثم .. كانت لفظية لا غير » (١)

على حين أخذ « الدكتور زكى مبارك » كل هاتيك الأخبار والقصص والمغامرات أخذا لمًّا ، وصدقها غير مرتاب فيها ولا متظنن ، يقول عن عمر بن أبى ربيعة :

« .. بلى انه رجل خليع ، وفاتن المنظر أخاذ ، فلا بد أن يكون شعره كذلك فاتنا أخاذا . وضاحك الثغر بسام ، فيجب أن يكون شعره كذلك ضاحكا بساما ..

« الا فليخل شعره من التوجع ، وليسلم نسيبه من الجزع ، وليترك الهم لقوم سواه ، فما كان بالمحزون ولا المهموم

« علام يصف الليل ويشكو كواكبه البطيئة ونجومه المشكولة وفجره المفقود ، وما كان الرجل فى التفاف النساء حوله واقبالهن عليه ، بالذى ... فلقد كانت تعده المرأة بالزيارة فى جنح الليل ، فلا تكاد تصل الى منزله حتى تجد غيرها قد سبقتها اليه ، فتعود آسفة حزينة !

« علام يشكو البين ، وما روعه نذير بالفراق الا بشره بشير بالتلاق ؟ أم كيف يبكيه الوداع وهو الذى ما شيع حبيبا الا استقبل حبيبا ، ولا غابت عنه شمس الا أشرقت عليه شمس ! (٢)

***

وماذا عن « سكينة بنت الحسين » ؟

ماذا عنها ، بين « أخبار الملاح » فى حديث زكى مبارك عن « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ؟

بدأ فقال :

« لا يغضب قوم ان ذكرنا انها كانت ـــ فى عفافها ـــ نزقة طائشة ، تؤثر الخفة على الوقار ، وتهوى أن يخلد حسنها فى قصائد الشعراء ..

« ... وما أظن هذه السيدة سلمت فى صلتها بابن أبى ربيعة ، من متورع

(١) حديث الاربعاء : ٢٩٥
(٢) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨١

برميها على طهرها بالخلاعة والمجون .. »

ثم قرر — قبل أن يجرد قلمه لرسم صورتها — أنه يضمر الحب والاجلال لتلك السيدة النبيلة . لماذا ؟ « لأنها قدرت نعمة الله عليها فدلت وتاهت بما وسمت به من الملاحة والجمال ، وعاشت فى رعاية الحسن والحب غير حافلة بأوضاع الاجتماع ، وكان فيها بلا ريب ما ينهى مثلها عن التبذل فى مخالطة المغنين وملابسة الشعراء » (١)

وآية اجلاله لتلك السيدة النبيلة ، وحبه اياها ، أنه تحدث عن بيتها بما يؤذن انها جعلت منه ملاذ متعة للشعراء الماجنين : « فكانت سياسة الذوق فى اختيار الوصائف ، وكان بيتها لذلك خفيف الظل على الأدباء والشعراء » (٢)

ثم تمادى به القول فجعلها — جعل بنت الحسين — مرفّهة تجعل «بيتها مألفا للمغنين . وتؤثر ترفيه الناس بما تستطيع تقديمه اليهم من متع الغناء .. »

« ولو صحت قصة الفرزدق معها ، لكانت دليلا على تسامح تلك السيدة وغفرها تهافت الشعراء على ما كانت تملك من المولدات الحسان ، والشاعر لم يخلق الا ليشقى بالحسن ويتعذب بالجمال ، وبقدر احساس السيدة سكينة لمحنة الشعراء المسرفين وعلمها بما كتب عليهم من سفه المنى وطيش الأحلام ، كانت ترق وتلين كلما شهدت اخلاصهم لما خلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق ! » (٣)

ثم ماذا ؟

ماذا بعد المرفّهة !

بعده ما عفّ قلم الدكتور زكى مبارك نفسه عن ذكره ، فذلك حيث يقول :

« ولها مع ابن سريج أخبار رأينا أن نضرب عنها صفحا لما فى مقدماتها

(١) حب ابن ابى ربيعة وشعره : ١٨٣
(٢) حب ابن ابى ربيعة وشعره : ١٨٨
(٣) حب ابن ابى ربيعة وشعره : ١٨٧

من مآثم تقف عندها حدود الأدب المكشوف ! » (١)

ثم كانت خاتمة الحديث عن السيدة التى أجلّها : « وفيما ذكرناه عن السيدة سكينة غنية لمن يريد أن يعرف كيف تمثلها الأدباء الأقدمون ، أما صورتها فى رءوس الصوفية ، فهى صورة القديسة التى تسيطر على الأرض والسماء ، وكل حزب بما لديهم فرحون »

وهى خاتمة تتسق مع المقدمة التى بدأ بها الحديث عن بنت الحسين قائلا :

« وأشرنا فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » عند الكلام عن الباطنية ، الى أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس الا أثرا للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب، وان الدعاة نجحوا فى حشو تلك الرءوس الجوفاء (!) بالخرافات والوساوس والأضاليل ، وضربنا المثل بالمعبودات الصغيرة التى تسكن سماء القاهرة من عترة سيدنا الحسين ! »

وصورة السيدة سكينة فى رءوس المسلمين (الجوفاء) هى بعض بيت الخرافات والأضاليل ..

أما صورتها التى جرّد الدكتور زكى مبارك قلمه لرسمها ، صورة المرفّهة ، فهى « صورة طبيعية لاغرابة فيها ولا شذوذ ، ولو كُتب عنها فصل فى مجلة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية ، لتلقاه أهل الغرب بالقبول ، وعدوا حياتها المرحة دليلا على تأصل الحضارة فى تلك الأسرة — الهاشمية النبوية العلوية — التى سادت الشرق زمنا غير قليل ! »

ووالله انه ليظلم الغرب بهذا ..

والا فلو أن مثل هذه الصورة التى رسمها لسكينة ، نشرت فى مجتمع هوليوود ومونمارتر ، لعدت دليلا على مدى هبوطه وانحلاله ، وما قضية المجلة الأمريكية التى نشرت بعض فضائح غوانى هوليوود ، عنا ببعيد ..

لكنها عند « الدكتور زكى مبارك » دليل تأصل لحضارة فى الأسرة

(١) حب ابن ابى ربيعة وشعره : ١٩١

الهاشمية النبوية !

وهى ، كذلك ، دليـل جاه للطبقـة العالية من قريش ، أما العامة والمغمورون فشأنهم غير ذلك

نقل الدكتور زكى مبارك فى كتابه ، ان رجلا من بنى جمح ولدت له جارية حسناء ، فقال : كأنى بها وقد كبرت فشبب بها عمر بن أبى ربيعة وفضحها ونوه باسمها كما فعل بنساء قريش ، والله لا أنمت بمكة ورحل بابنته الى البصرة ، ليتقى لسان عمر ! (١)

ولو أنه كان علويا شريفا ، لطرب لغزل عمر فى نسـاء بيتـه ، كما زعموا أن الامام جعفر الصادق بن محمد بن على بن الحسين عليهم السلام ، أنشد احدى غزليات عمر ــ المقول فى رواية انها فى سكينة ــ فطرب وارتاح ، حتى اذا بلغ قول عمر :

ليس بين الحيـاة والموت الا
أن يردّوا جمـالهم فتزمّا

جعل الامام يقول : عجّلوا البين ، أفلا يوكون قربة ؟ أفلا يودعون صديقا ؟ أفلا يشدون رحلا ؟ ... حتى جرت دموعه ! (٢)

وكذلك كانت هذه الصورة التى فتنت الدكتور زكى مبارك ، سمة الحرائر عنده !

أما الاماء المغنيات فلهن صورة أخرى ، يمثلها عنده الخبر الذى نقله من كتاب الأغانى عن « جميلة » المغنية « أنها لما قضت حجها سألهـا المكيون أن تجلس لهم مجلسا ، فقالت : للغناء أم للحديث ؟ قالوا : لهما جميعا . فقالت : ما كنت لأخلط جدا بهزل . وأبت أن تجلس للغناء . فقال عمر بن أبى ربيعة : أقسمت على من كان فى قلبه حب لاستماع غنائها ، الا خرج معها الى المدينة فانى خارج »

وتبعوها الى المدينة ، حين أصرت على ألا تخلط جدا بهزل ، فتجلس للغناء فى مكة وقد خرجت اليها حاجة !

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٢٨
(٢) الاغانى : ١٧١/١ دار الكتب

ولو كانت حرة شريفة ، كبنت الحسين ، لكان لها شأن آخر ...

ولا تعجب اذ يتمثل « الدكتور زكى » السيدة سكينة : « نزقة طائشة ، مبتذلة فى مخالطة المغنين وملابسة الشعراء ، حريصة على الترفيه عنهم » وقد قرأ فيما قرأ من أخبارها أن زوجها مصعب دخل اليها مودعا ، حين تهيأ للخروج الى عبد الملك ، فصاحت من خلفه : وا حزناه عليك يامصعب ! فالتفت اليها وقال : أوَ كلُّ هذا لى فى قلبك ؟ قالت : أى والله ! وما كنت أخفى أكثر ! فقال : لو كنت أعلم أن هذا كله لى عندك لكانت لى ولك حال »

أجل لا تعجب ، فقد مُسخت القيم عند صاحب « حب ابن أبى ربيعة » وانعكست الأوضاع فى تقديره ، فصار هذا الضبط العاطفى — حتى فى مخدع الزوجية — دليل نزق وطيش ، مثله مثل التبذل الماجن الذى عده مظهر أصالة فى أسرة سكينة ، والتحرج الخاشع الذى عده سمة القيان الاماء ، فى جميلة المغنية

ولا تسأله أين كان بنو هاشم ، وأين كان الامام زين العابدين ، وعُمر يرفع عقيرته بالغزل فى سكينة ، وبيتها قد صار « مألفا للمغنين ملاذا للشعراء المخلصين لما خلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق » فمثل الامام زين العابدين من لا يغضب لأخته حين غضب «ابن أبى عتيق» — فيما نقل الدكتور (١) — لابنة عمه زينب بنت موسى الجمحية ، لما تغزل فيها عمر على السماع ، فرد عليه عمر :

لا تلمنى عتيـــق حسبى الذى بى
ان بى يا عتيق ما قد كفـــانى
لا تلمنى وأنت زيَّنتهـــا لى
أنت مثـــل الشيطان للانســـان

ومثل بنى هاشم وآل البيت ، من لا يغضبون لابنتهم كما غضب بنو تيم بن مرة ، وولد طلحة بن عبيدالله ، لأختهم عائشة ، وتوعدوا عمر ان

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ٥٣

هو تغزل بها أن يؤدبوه ، فأقسم لهم بالله ألا يذكرها فى شعر أبدا

مثلهم من لا يغار على سكينة ، كما غار أبو الأسـود الدؤلى على زوجته ، أو كما غار الحجاج بن يوسف الثقفى على فاطمة بنت عبد الملك ـ وليست من ثقيف ـ فكتب الى عمر يتوعده بكل مكروه ان ذكرها فى شعره ..

أجل ، لا تسأله عن هذا ، فانما يسأل من يحاسب قلمه ، ويتقى الحق والضمير فيما يكتب ، ويحترم عقله وعقول الناس

وانما الذى كان يجوز أن يسأل فيه ـ رحمه الله ـ هو كيف فاته أن ينقل الشعر الذى قيل ان الاحوص الانصارى تغزل فيه بسكينة . فمن أخبارهم أن كل غزل الأحوص بعقيلة ، هو فى سكينة بنت الحسين ، وانما كنى عنها باسم عقيلة (١)

وقد عده بعض أهل عصره أنسب الناس بقوله فى عقيلة :

يا للرجـال لوجـدك المتجـدد
ولمـا تؤمل من عقيلة فى غدِ

ترجو مواعد ، بعثُ آدم دونها
كانت خبـالا للفـؤاد المقصـد

هل تذكرين « عقيل » أو انساكِه
بَعـدى تقلـّب ذا الزمان المفسـد

يومى ويومك بالعقيـق اذ الهوى
منا جميـع الشمل لم يتبدد ! .. (١)

وأغلب الظن عندى ان الدكتور زكى مبارك لم يطلع على هذه الأبيات ، ولم يقرأ الخبر القائل بأن عقيلة هى سكينة ، والا لأقسم بكل غال لديه ، ان أخبار الأحوص مع عقيلة ، كانت حقا فى سكينة ، وان ليوم العقيق هذا شأنا أخطر من ليلة الصورين !

---

(١) الاغانى : ٢٦١/٤ دار الكتب
(١) الاغانى : ٢٥٩/٤ ـ دار الكتب

كلمة يجب أن تقال

لا أدع الحديث عن « بنت الحسين » فى أخبار الرواة والقصاصين ، دون أن أسجل هنا كلمة الشيعة فى كل هذا الذى قيل عنها ونسب اليها

انهم يذهبون الى أن أكثر هذه الأخبار والأقاويل من مفتريات الأمويين وأشياعهم ويستدلون على هذا بأدلة :

منها : ما ذكره السيد الفكيكى من أن « أبا على القالى » قد ارتجل أماليه وهو فى كنف تلميذه الحكم الأموى فى الاندلس ، فأملى فيها ما أملى عن « سكينة بنت الحسين » ولم يذكر شيئا من أشعار ابن أبى ربيعة التى تغزل فيها بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وبأخته أم محمد بنت مروان بن الحكم ، كما أهمل أشعار ابن أبى ربيعة فى رملة وأخت الحجاج ، ولم يحفظ الا رواية المغنين المقلوبة فى « سكينة » عليها السلام (١)

ومنها : ان خبر ابن سريج وحيلة أشعب معه لحمله على الغناء فى دار سكينة مع عزة المغنية ، قد ورد فى الجزء الخامس عشر من الأغانى ، ولم يشر اليه أبو الفرج فى ترجمة ابن سريج وأخباره التى أوردها فى الجزء الثانى من أغانيه ، مما يدل على ان هذه القصة قد أدخلت عليه ، ويجوز أن يكون ذلك قد حدث بعد شراء الحكم الخليفة الأموى كتاب الأغانى باشارة أستاذه الشيخ أبى على القالى بعد رحلته الى الاندلس ، مع العلم بأن كتاب الأغانى قد نشره الحكم الأموى باشراف القالى فى الاندلس ، قبل نشر نسخته الأصلية فى بغداد

---

(١) يشير هنا الى قصيدة عمر : « قالت سكينة والدموع ذوارف » وقد قالها ابو الفرج مرة : « قالت سعيدة والدموع ذوارف » وقال ان المغنين غيروها فقالوا : سكينة ـ وارجع فى أقوال السيد الفكيكى الى كتابه « السيدة سكينة »

ومنها : أن أصحاب النهضات الهاشمية ، كانوا يرفعون صيحاتهم الاحتجاجية فى وجوه ملوك بنى أمية وولاتهم ، من جرّاء تصرفاتهم وأحداثهم المنكرات لروح الاسلام وتعاليمه ، وقد رموا يزيد بن معاوية بالفسق ، وكفروا الوليد بن يزيد ، ولم يذكر لنا التاريخ ان الوليد أو يزيد أو معاوية ، استطاع أن يغمز فى قناة الهاشميين الكرام بمثل ما فى كتاب الأغانى ، ولو كان أحد الأمويين يعلم أن السيدة سكينة قد جعلت دارها ملهى ، لطبلوا به وزمروا ، وكل ما قاله معاوية للامام الحسين رضى الله عنه عند امتناعه عن الموافقة على ولاية العهد ليزيد : « مهلا عن شتم ابن عمك ، فانك لو ذُكرتَ عنده بسوء لم يشتمك »

أما عبد الملك بن مروان ، فقد قال فى حق زوج سكينة ، مصعب بن الزبير ، خصمه الألد : « لو علم ان الماء ينقص مروءته ما ذاقه » وقد سأل يوما أصحابه عن أشجع الناس ، فعدوا له عدة أسماء من أعظم شجعان العرب ، فأبى عليهم ولم يوافقهم . ثم سألوه رأيه فأجاب : « هو مصعب بن الزبير ، وعنده عقيلتا قريش ، سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة » !..

ثم حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حين خطب سكينة ، فأنكر أهلوها وغضبوا وكانت معركة — رواها صاحب الأغانى نفسه — هذه الحكاية قد تكفى لدحض فرية مجالس الطرب التى كانت سكينة رضى الله عنها فى دارها وتأذن اذنا عاما لأهل المدينة « وقومها الأطياب المناجيد الغيارى ساكتون ... »

***

وكل هذا مما يجوز أن يقال ، فلا نراه بعيدا ..

وكذلك لا نستبعد أن يكون كثير مما أضيف الى أميرات البيت الأموى ، من صنع هذه الخصومة العنيفة الجامحة !.. كتلك القصة المنكرة التى زعمت ان أم البنين — بنت عبد العزيز المروانى ، وزوج الوليد بن عبد الملك — أحبت وضاح اليمن وأحبها ، وحدث أن أرسل اليها

الوليد هدية من جوهر أعجبه ، مع خادم له : « ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحا ، فأسرعت الملكة الى صندوق فأخفت فيه صاحبها ، ثم أخذت الجوهر من الخادم وقد رأى ما صنعت فطمع فيها . وأراد أن يستغل ما يعلم ، فطلب اليها أن تمنحه حجرا من هذا الجوهر ، فلما أبت عليه ذلك انصرف محنقا الى الخليفة فأنبأه بما رأى . فنهض من فوره ودخل على الملكة ، فاذا هى تتمشط ، فجلس على الصندوق الذى وصفه له الخادم ، وأخذ يتحدث الى الملكة فى ملاطفة حتى سألها أن تهديه هذا الصندوق فلم تستطع رده . فأمر فاحتفرت بئر وألقى فيها الصندوق وهيل عليه التراب وسويت الأرض ، ولم يعرف أحد لوضاح خبرا ، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئا »

ولوضاح هذا قصيدة فيها ، من أبياتها :

قالت : ألا لا تلجن دارنا
ان أبانا رجل غائر

قلت : فانى طالب غرة
منه ، وسيفى صارم باتر

قالت : فان القصر من دوننا
قلت : فانى فوقه ظاهر

قالت : فان البحر من دوننا
قلت : فانى سابح ماهر

قالت : فحولى اخوة سبعة
قلت : فانى غالب قاهر ،

قالت : فليث رابض بيننا
قلت : فانى أسد عاقر

قالت : فان الله من فوقنا
قلت : فربى راحم غافر

قالت : لقد أعييتَنا حجة
فأت اذا ما هَجع الساهر
فاسقط علينا كسقوط الندى
ليلةَ لا ناه ، ولا زاجر ! ..

والقصة مسرحها قصر الخلافة بدمشق ، وليس فى مكة والمدينة ، اللتين استأجر لهما الأمويون الماجنين والمخنثين لاهدار حرمتهما الدينية ، ولافساد الشباب الحجازى عن قصد وعمد .. فيما يؤكد لنا مؤرخو أدبنا ! ..

***

وربما عرض لنا آخر الأمر أن نسأل : متى ظهرت « سكينة » فى المجتمع طليقة متحررة ، وشاركت فى التاريخ الأدبى لعصرها ؟ ..

الأخبار التى بين أيدينا ، تشير الى أنها ظهرت لأول مرة فى موسم الحج سنة ٦٠ هـ ، حين صحبت أباها رضى الله عنه فى هجرته من المدينة الى مكة . وقد كانت اذ ذاك فى ربيعها الثانى عشر أو الثالث عشر . وغير بعيد أن تكون قد لفتت اليها الأنظار بنضرة صباها وحيوية مرحها وبهاء طلعتها ، ولكن مهابة أبيها الحسين الامام ، كانت كافية وحدها لأن تلجم ألسنة الشعراء عن التغنى باسمها فى قصائد الغزل

فهل ترى حلَّت عقدة لسانهم ، بعد عودتها الى المدينة اثر فاجعة كربلاء ؟ ..

المؤرخون يقررون أن المدينة كلها كانت فى مأتم عام لسيد الشهداء ، وان أمها « الرباب » قد أمضت عاما بأكمله حادة حزينة ، حتى لحقت بزوجها الشهيد (١) ، وان « أم البنين بنت حزام بن خالد العامرية ، زوج الامام على بن أبى طالب » . « كانت تخرج الى البقيع كل يوم ، فتبكى أبناءها الأربعة ، أعمام سكينة ، الذين استشهدوا مع أخيهم الحسين فى كربلاء : عبد الله ، وجعفر ، وعثمان ، والعباس ، بنى على بن أبى طالب

(١) تاريخ ابن الاثير (الكامل) : ٧٣/٤ — وانظر معه (مقتل الحسين : ٤٥٣ وما بعدها)

كرم الله وجهه ، فتلبث نهارها هناك تندب بنيها أشجى ندبة وأحرقها ، ويجتمع الناس اليها يسمعون منها . فكان مروان يجيء فيمن يجيء لذلك ، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكى » (١) .

فهل ترى كان يحدث هذا ، وسكينة تعقد مجالس الغناء فى دارها ، وتواعد « عمر » الصورين ذات ليلة ، استجابة لرغبة نسوة شاقهن مجلس ابن أبى ربيعة ؟ ..

هل كان مروان بن الحكم ، يسمع أم البنين تندب أعمام سكينة ، فيبكى لها ، وسكينة تبكى بدموع ذوارف على الخدين والجلباب ، لفراق عمر ابن أبى ربيعة ، وتصغى الى شدو المغنين بقولها على لسانه :

ليت المغـيرى الذى لم أجزه
فيما أطال تصيدى وطلابى .. !
كانت ترد لنـا المنى أيامنـا
اذ لا نلام على هوى وتصابى .. !

فلعل عمر اذن ، قد قال فيها ما قال بعد عودتها من سفرها الى مصر مع عمتها السيدة زينب عقيلة بنى هاشم ؟

الذين أرخوا للسيدة زينب ، ذكروا وفاتها فى شهر رجب سنة ٦٢ هـ (٢) ، وقد ثوت فى مرقدها الأخير هنالك ، وآبت سكينة من رحلتها مضاعفة اليتم ، لتشهد بعد ذلك ثورة أهل المدينة على بنى أمية ، وخروجهم على « يزيد بن معاوية ، لقلة دينه » وهى الثورة التى انتهت بموقعة الحرة ـــ بظاهر المدينة ـــ حيث استشهد من أولاد المهاجرين والأنصار ٣٠٦ شخصا ، وعدد من بقية الصحابة الأولين ، وهجر المسجد النبوى فلم تقم فيه صلاة الجماعة لمدى أيام (٣)

والمقول أن عمر تاب توبته المشهورة فى ذلك العام ، وشـغل العالم الاسلامى بعد ذلك بقيام حركة التوابين فى العراق ، الذين آدهم الندم

(١) مقاتل الطالبيين : ٨٥ وانظر تاريخ الطبرى ٢٦٩/٦
(٢) العبيدلى النسـابة : السيدة زينب واخبار الزينبات ـــ ص ٢٠
(٣) تاريخ الطبرى : ٥/٧ – ومقاتل الطالبيين : ١٢٣ ومابعدها
وانظر شذرات الذهب : ٧٠/١

على عدم نصرة الامام الحسين الشهيد ، فلم يروا كفّارة دون القتل فى الثأر له ولصحبه ، فهل يا ترى ، كانت سكينة تصم أذنيها عن هتاف التوابين ، لتترغم « ابن سريج » على الغناء فى دارها مع عزة الميلاء ، وتفتنه عن توبته عن الغناء ؟ ..

وقد رأيناها بعد ذلك تشغل بحياتها الزوجية مع مصعب بن الزبير ، ثم ترجع الى المدينة مقهورة محزونة ، فلا تكاد تطوى جرحها فى الأعماق حتى تتزوج من عبيد الله بن عثمان الحزامى ، وتفرغ لتربية صغارها الأربعة بعيدا عن أضواء المجتمع ، فلما ترملت ، بعد أن أرهقها التيار جذبا ودفعا ، وأنهكها الموج شدا وارخاء ، بدأت تظهر فى المجتمع ، وقد هبطت بها موجة الأحداث والأرزاء الى قرارة اليأس ، فكانت تجربتها الأخيرة ، فى زواجها الفاشل من زيد بن عمر العثمانى ، هى آخر الشوط فى المقاومة ، ومن ثم استقر رأيها نهائيا على ممارسة الحياة ممارسة التى ضجرت ، وجربت ، وكابدت ، وشربت الكأس حتى الثمالة !

وظهرت فى المجتمع ، وكانت وقتئذ ، فى منتصف العقد الخامس من عمرها !

وربما جاز عند الدكتور زكى مبارك ، أن يتصورها فى هذه السن العالية « تعيش فى رعاية الحسن والجمال ، وتحرص على تخليد مفاتنها على ألسنة الشعراء »

وغير عجيب أن يجوز عنده كذلك ، أن يكون « عمر » قد شهد معها ليلة الصورين ، وملأ الأفق الحجازى بقصائد غزله فيها ، بعد مضى ثلث قرن على توبته !

أما الذى يجوز عندنا ، فهو أن « سكينة بنت الحسين » قد شغلت من ذلك الوقت ، دورا آخر فى المجتمع ، هو دور الأديبة الناقدة

وهذا ما نفرغ له فى فصل جديد ...

الأديبة الناقدة

لم يع تاريخ الأدب للسيدة سكينة غير أبيات معدودات ، كتلك التى قيل انها رثت بها أباها رضى الله عنه :

لا تعذليه فهمٌ قاطعٌ طرفه
فعينه بدموع ذرّف غدِقه
ان الحسين غداة الطف يرشقه
ريب المنون فما أن يخطىء الحدقه
بكفّ شر عباد الله كلهم
نسل البغايا ، وجيش المرّق الفسقه
آأمّة السوء هاتوا ، ما احتجاجكم
غدا ، وجلّكم بالسيف قد صفقه
الويل حل بكم الا بمن لحقه
صيرتموه لأرماح العدى درقه
يا عين فاحتفلى طول الحياة دما
لا تبك ولدا ولا أهلا ولا رفقه
لكن على ابن رسول الله فانسكبى
دما وقيحا ، وفى اثريهما العلقه (١)

***

وبيتين اثنين ، فى رثاء زوجها مصعب بن الزبير :

فان تقتلوه تقتلوا الماجد الذى
يرى الموت الا بالسيوف حراما

---

(١) أمالى الزجاج : ١٠٩

وقبلك ما خاض « الحسين » منية
الى القـوم حتى أوردوه جمـاما !

وهى أبيات لا تكفى لعدها شاعرة !

لكنى أكاد لا أرتاب فى أن الرواة قد أسقطوا لها شعرا آخر فى غير الرثاء !

وتلك شنشنة نعرفها من أخزم !

انهم قصروا المجال الفنى للمرأة على الرثاء ، وقل أن اعترفوا بها شاعرة غير راثية

فعلوا ذلك مع الخنساء !

وفعلوه مع ستين شـاعرة أخرى من شواعر العرب ، ذيلوا بمراثيهن ديوان الخنساء المطبوع فى بيروت

وفعلوه مع « الرباب » بنت امرىء القيس أم سكينة . قالوا : هى شاعرة ، ثم لم يحفظوا لنا من شعرها غير بضعة أبيات فى رثاء زوجها ..

وبيتين آخرين رثته بهما أيضا حين سيقت مع ركب السبايا الهاشميات ، الى قصر ابن زياد . وقد نقلناهما فى الحديث عن كربلاء

وما بمثل هذه الأبيات ، تعد « الرباب » شاعرة كما وصفوها !..

على ان التاريخ الأدبى ، وان أسقط شعر « سكينة » فى غير الرثاء ، فقد اعترف لها من ناحية أخرى بمكانة لعله لم يعترف بمثلها لسيدة غيرها فى مختلف عصـوره ، حين ألقى اليها مقاليـد الحكم بين أمراء الفن فى الشعر والغناء

وأقرّ لها بالسيطرة الأدبية على عصرها فى مجال النقد ، حين فرضت عليه شخصيتها الفريدة ، وبهرته بذوقها الفنى الأصيل الذى هيأ لها أن تكون ذات بصر دقيق بفن القول ، وفقه لأسرار العربية فى الأداء

***

وكانت الاصالة هى الطابع المميز لها ذوقا وحسا ، بقدر ما كانت الطابع المميز لها نسبا وجمالا وأناقة

وليس صحيحا أن أمراء الشعر فى زمانها انما أقروا لها بالسيطرة الأدبية خضوعا لجبروت جمالها ، وهيبة شرفها كما ذهب الدكتور زكى مبارك ، فما لجمال الأنثى جبروت فى سن الكهولة والشيخوخة ، وهى بعد لم تنفرد بالحسن دون بنات جيلها ، بل شاركتها فيه أخريات يكفى أن نذكر منهن أختها « فاطمة بنت الحسين » التى قيل فيها ، يوم اختارها أبوها رضى الله عنه لابن عمها الحسن : « ان امرأة مردودتها سكينة ، لمنقطعة القرين فى الحسن » . كما نذكر عائشة بنت طلحة ، التى خلبت ألباب الشعراء فى عصرها فكادوا يجنون بها جنونا ، والتى ذكروا أن أبا هريرة قال فيها :

ـ سبحان الله ، لكأنها من حور الجنة ..

كذلك لم يكن شرفها العالى هو الذى ألقى اليها مقاليد الحكم الأدبى وأخضع لها الشعراء ، والا لشاركتها فى مكانتها هذه ، أختها فاطمة وبنات عمها الحسن ، حفيدات الزهراء مثلها وسليلات النبوة !

وانما كانت سيطرتها الأدبية ترجع فى الحقيقة الى علو كعبها فى فن القول ، وحساسيتها المرهفة فى ذوق الشعر ، وادراكها البصير لمواطن التأثير ودوافع القول وأسرار البلاغة والبيان

ولولا أنها كانت نادرة عصرها بصرا بالشعر وفقها للعربية ، لما اعترف بها التاريخ الأدبى بمثل تلك المكانة ، وهو الذى أسقط شعرها من ديوان الأدب ، وجحد شاعريتها وشاعرية الاناث مثلها ، الا أن تكون راثية !

وبين أيدينا خبر ، قد يوضح لنا السبب الذى من أجله ألقيت الى السيدة سكينة مقاليد النقد الأدبى فى عصرها ، ونص الخبر :

« أنشدت سكينة بنت الحسين قول الحارث بن خالد ، فى وصف النساء ، فى الحج :

ففرغن من سبع وقد جهدت
أحشاؤهن موائل الخمر

فسألت سكينة من بالمجلس : أحسن عندكم ما قال ؟.. قالوا : نعم .

فقالت : وما حسنه ؟ !.. فوالله لو طافت الابل سبعا لجهدت أحشاؤها » (١)

واذن فقد غاب عنهم ما لم يغب عن سكينة ، وفاتهم ان ينتبهوا الى ما انتبهت اليه بحسها المرهف !

***

والقدر الذى وعاه لها التاريخ الأدبى فى النقد والتحكيم والموازنة ، يكفى للدلالة على منزلتها الرفيعة فى المجتمع الأدبى ، ويقدم لنا نماذج من أحكامها وآرائها النقدية ، تفسر لنا ، لم آثرها عصرها بهذه المنزلة التى لا نعرف أنهم اختلفوا فيها .

وهذا كتاب الأغانى ، وفيه ما فيه من أخبار ومرويات كتلك التى سمعناها ، ينقل رواية عن محمد بن سلام ، تؤازرها رواية مثلها عن عمر ابن شبة : « ان جريرا والفرزدق وكثيرا وجميلا ونصيبا ، اجتمعوا فى ضيافة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه ، فمكثوا أياما ثم أذنت لهم فدخلوا عليها ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم . ثم أخرجت وصيفة لها قد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت : أيكم الفرزدق؟ فقال لها : هأنذا . قالت : أنت القائل :

هما دلّتانى من ثمانين قامة
كما انحط باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا :
أحىٌّ يرجّى أم قتيل نحاذره

فقلت : ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا
وأقبلتُ فى اعجاز ليل أبادره

أبادر بوّابين قد وُكّلا بنا
وأحمرَ من ساج تبصّ مسامره !

قال : نعم ..

---

(١) الأغانى : ٣٢٧/٣ دار الكتب

قالت : فما دعاك الى افشاء سرها وسرك ، هلا سترت عليك وعليها ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك ..

« ثم دخلت على مولاتها وخرجت برسالتها فقالت : أيكم جرير ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
حين الزيارة فارجعي بسلام

تجرى السواك على أغرّ كأنه
برد تحدر من متون غمام

لو كان عهدك كالذى حدثتنا
لوصلتِ ذاك وكان غير لمام

انى أواصل من أردت وصاله
بحبالِ لا صلف ولا لوام

قال : نعم ..

قالت : أوَلاَ أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟.. أنت عفيف وفيك ضعف . خذ هذه الألف والحق بأهلك ..

« ثم دخلت الى مولاتها وخرجت فقالت : أيكم كثير ؟.. قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

وأعجبنى يا عزّ منكِ خلائق
كرامَ اذا عُدّ الخلائق ، أربع

دنوّك حتى يدفع الجاهل الصبا
ودفعُك أسبابَ المنى حين يطمع

فوالله ما يدرى كريمٌ مماطل
أينساكِ اذ باعدتِ أو يتصدّع !

قال : نعم ..

قالت : « ملحتَ وشكلت ، خذ هذه الثلاثة الآلاف والحق بأهلك ..

« ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ؟ .. قال :

هأنذا . فقالت : أنت القائل :

ولولا أن يقال : صبا نصيب
لقلت : بنفسيَ النشأُ الصغار
بنفسي كلُّ مهضوم حشاها
اذا ظلَمت فليس لها انتصار

قال : نعم ..

فقالت : ربيتَنا صغارا ومدحتَنا كبارا . خذ هذه الألف والحق بأهلك.

« ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل ، مولاتى تقرئك السلام وتقول الك : والله مازلتُ مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بوادى القرى ، انى اذن لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل عندهن شهيد

جعلتَ حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء . خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك (١)

وليس يفوتنا ما للنص من دلالات ..

منها ، ان أمراء الشعر فى عصرها كانوا يجتمعون فى دارها فتأذن لهم وتجلس حيث تراهم ولا يرونها ، وقد اتخذت وصيفة لها تنقل الى كل منهم مختارها من شعره ورأيها فيه . فعلت ذلك مرة بعد مرة . فكلما فرغت من شاعر دخلت على مولاتها وعادت برسالة منها لشاعر آخر ، وهى السيدة التى وصفها « زكى مبارك » بالتبذل فى مخالطة المغنين وملابسة الشعراء ..

وقد أنكرت على « الفرزدق » افشاء سره وسر صاحبته ، والأخبار تزعم مع هذا انها طربت لغناء الغريض بشعر « عمر » فيها ، وقد أفشى به سرَّ ليلة الصورين !

---

(١) الاغانى : ١٦٦/١٤ ومابعدها ـ ساسى

وأثنت على « جرير » لعفة شعره ، وان أنكرت ضعفه ، وأسلوبه فى مخاطبة زائرته

وأعجبتها أبيات « كثير » فى وصف صاحبته ، لما لمحت فيها من دقة التعبير عن عزة الأنثى ، وطبيعة حواء ..

❋❋❋

وخبر آخر ننقله من (الأغانى) على علاته ، وهو صريح فى احتكام الشعراء — أو رواتهم — اليها لما يعرفون من عقلها وبصرها بالشعر . قالوا : « اجتمع بالمدينة راوية جرير ، وراوية كثير ، وراوية جميل ، وراوية نصيب ، وراوية الأحوص ؛ فافتخر كل رجل منهم بصاحبه وقال : صاحبى أشعر

« فحكموا سكينة بنت الحسين بن على عليهما السلام ، لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر ، فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها فأذنت لهم ، فذكروا لها الذى كان من أمرهم فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بسلام

أى ساعة أحلى من الطروق ؟.. قبّح الله صاحبك وقبّح شعره ..

« ثم قالت لراوية كثير : أليس صاحبك الذى يقول :

يقر بعينى ما يقر بعينها
وأحسن شىء ما به العين قرت

أفيحب صاحبك أن يكون أنثى ؟.. قبّح الله صاحبك وقبّح شعره ..

« ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها
ولكن طلابيها لما فات من عقلى

فما أرى بصاحبك من هوى ، انما يطلب عقله !.. قبّح الله صاحبك وقبّح شعره ..

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت
فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى

فما أرى له همة الا فيمن يتعشقها بعده !.. قبّح الله صاحبك وقبّح شعره .. ألا قال :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت
فلا صلحت دعدٌ لذى خلة بعدى !

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول :

من عاشقين تراسلا وتواعدا
ليلاً اذا نجم الثريا حلّقا
باتا بأنعم ليلة وألذها
حتى اذا وضح الصباح تفرقا

قال : نعم ..

قالت : قبّحه الله وقبّح شعره !.. ألا قال تعانقا ؟ .. (١)

ودلالة النص ان سكينة كان اليها الاحتكام اذا اشتجر الخلاف بين رواة الشعراء أىّ أصحابهم أشعر ، وانها كانت واعية للشعر حافظة ، تعرف مآخذ الشعراء وتقسو فى محاسبتهم على عثراتهم . ولفتاتها النقدية دقيقة بارعة ، وهى جديرة بأن تعين على فهمنا لعصر سكينة الأدبى ، على ضوء الاعتبارات الفنية التى كانت الناقدة الأولى للعصر ، تصدر عنها أحكامها فى ذوق الشعر ، ووزن الشعراء

ولم يكن اعجابها بشاعر ، يحميه من قسوتها فى مؤاخذته ، فهذا « جرير » الذى أنكرت عليه ضعفه وسوء أدبه فى مخاطبة النساء حيث قال :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بسلام

(١) الاغانى : ١٦٦/١٤ ساسى

كانت ربما قدمته على الفرزدق ، وصارحت الفرزدق برأيها فيهما دون مجاملة . حدث الشعبى : « ان الفرزدق خرج حاجًا ، فلما قضى حجه عدل الى المدينة فدخل الى سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فسلَّم ، فقالت له : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبت ، أشعر منك الذى يقول :

بنفسى مَن تجنّبُه عـــزيز
علىَّ ومَن زيـارته لمـــام
ومن أُمسِى وأُصبِح لا أراه
ويطرقنى اذا هجع النيـــام

فقال لها : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . ثم أمرته فانصرف .
فلما كان الغد استأذن عليها فسألته : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبت ! صاحبك « جرير » أشعر منك حيث يقول :

لولا الحيـاء لهـاجنى استعبـار
ولـزرت قبـرك والحبيـب يـزار
كانت اذا هجر الضـجيعُ فراشَها
كُتِم الحـــديثُ وعفّت الأسرار
لا يلبثُ القـرناء أن يتفـرقـوا
ليـلٌ يكـرّ عليـهم ونهـار ! . .

فقال : والله لئن أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . فأمرت به فانصرف ، ثم عاد اليها فى اليوم الثالث ، فأعادت سؤاله : يا فرزدق من أشعر الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبت ، صاحبك أشعر حيث يقول :

إن العيــون التى فى طرفهــا مرض
قتلتنــا .. ثم لم يحيــين قتــلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله أركانا . » (١)

فاذا كان هــذا الموقف حدث قبــل اجتماع الفرزدق مع جرير ، فى ضيافتها ، فذلك هو ما قلناها من ان اعجابها بالشاعر وتفضيلها اياه ، لم يكن يجعلها تغض البصر عن سقطاته . أما ان كانت مؤاخذتها جريرا قد سبقت زيارة الفرزدق لها ، وسماعه ما سمع من تفضيلها « جريرا » عليه ، فهذا ما يدل على ان السيدة الناقدة ، لم تكن تحكم على الشاعر بشعره جملة ، أو تتشبث برأى لها فيه لا تعدل عنه ، أخطأ « جرير » فقالت له : فيك ضعف ، ثم لم يمنعها ضعفه من الحكم له على الفرزدق

***

وقد روى أبو الفرج فى أغانيه خبرا له دلالته على شدة شغفها بالشعر وحرصها على السمو به الى فنية جمالية ، حدّث المدائنى : ان « سكينة كانت ذات ليلة تسير ، فسمعت حاديا يحدو فى الليل يقول :

** لولا ثلاث هن عيش الدهر **

فقالت لقائد قطارها : الحق بنا هذا الرجل حتى نسمع منه ما هــذه الثلاث . فطال طلبه لذلك حتى أتعبه . فقالت سكينة لغلام لها : « سر أنت حتى تسمع عنه » . فسار الغلام سريعا ثم عاد الى مولاته ، فقــال لها : سمعته يقول :

** الماء ، والنوم ، وأم عمرو **

فقالت : قبّحه الله ، أتعبنى منذ الليلة ! » (٢)

وانمــا أنكرت أن يخلط بين حاجات الجسم المــادية ، وحاجة القلب

---

(١) الاغانى : ٣٨/٨ ط الدار
والابيات فى (ديوان جرير) ط الصاوى ، مع خلاف يسير
(٢) وفيات الاعيان ٢١١/١
والاغانى : ١٠١/٢١ ساسى

والوجدان . وأن تستوى عنده أم عمرو ، والماء ، والنوم ، بل تتأخر عنهما .

وتشهد نادرة لها طريفة ، نقلها « ابن خلكان » على انها كانت مرهفة الحس الشعرى ، دقيقة اللمح لسر القول ودلالته على صدق المعاناة . « يروى انها وقفت على عروة بن أذينة (١) وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين ، وله أشعار رائقة ، فقالت له : أنت القائل :

اذا وجدت أوار الحب فى كبدى
ذهبتُ نحو سقاء الماء أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره
فمن لنار على الأحشاء تتقد

قال : نعم ..

قالت : وأنت القائل :

قالت ، وأبثثتها سرّى وبحتُ به
قد كنتَ عندى تحت الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى ؟.. فقلت لها :
غطى هواك وما ألقى على بصرى

قال : نعم ..

فالتفتت الى جوار لها كن حولها وقالت : هن حرائر ، ان كان هذا الشعر خرج من قلب سليم قط ! (٢)

وانما أنكرت أن يزعم « عروة » ، وهو من كبار الصالحين ، انه قال هذا الشعر على مذهب الشعراء !

---

(١) أبوعامر ، توفى حوالى سنة ١٣٠ هـ . وكان من جلة علماء المدينة ومن شعرائها المقدمين . وروى عنه الامام مالك وغيره .
انظر بعض اخباره فى (الاغانى : ١/١٠٥) ساسى
(٢) رواية (سمط اللآلى : ١/١٣٦) :
للشطر الثانى من البيت الاول :
* أقبلت نحو سقاء الماء أبترد *
وجىء فيه بكلمة السيدة سكينة دون ذكر اسمها ، وعلق الاستاذ الميمنى بهامشه :
هذه هى السيدة سكينة ، وهى السائلة عن الشعر كما فى (المصارع ٢١٣) و (المرتضى ٢/٧٣)

وانها لتحس فيه بذوقها المرهف نبض قلب جريح أضناه الحب ، وتدرك بوجدانها الذكى ، أن وراء مثل هذا الشعر معاناة صادقة ..

وكانت جديرة عندى بأن تدرك كذلك صدق المعاناة وحرارة التفجع فى قول « عروة » يرثى أخا له اسمه بكر :

سرى همّى ، وهم المرء يسرى
وغاب النجم الا قيد فتر
أراقب فى المجرة كل نجم
تعرض فى المجرة كيف يجرى
لهمٍّ ما أزال له قرينا
كأنّ القلب أسعِر حرَّ جمر
على بكر أخى ، ولّى حميدا
وأى العيشِ يصلح بعد بكر ؟ ..

لكنها لما سمعت هذا الشعر قالت : « من يكون بكر هذا ؟ » فوصف لها فقالت : أهو ذلك الأسيّد ــ تصغير أسود ــ القصير الذى كان يمر بنا ؟.. قالوا : نعم .. قالت : « لقد طاب بعده كل شيء حتى الخبز والزيت ! » (١) أو كما جاء فى الأغانى : « كل العيش والله يصلح ويحسن بعد بكر ، حتى الخبز والزيت » (٢)

وأعوزها هنا التعاطف الوجدانى ، يشجيها بكلمة أخ فى رثاء أخيه ، مهما يكن هذا الأخ فى نظر الناس قميئا أو مغمورا ، وعلى كل حال فسكينة تتلقى الشعر بذوقها الخاص وتحكم عليه بمقدار ما يؤثر فيها ويقع من وجدانها ..

* * *

وهكذا تمثلها الأخبار ، وقد عقدت لها امامة النقد فى عصرها ، واشتدت فى رقابتها الأدبية على الشعراء ، فمضت تكشف فى صراحة قاسية عن مواضع المؤاخذة ، وتهدى الى أسرار التعبير ، وتوجه الى

(١) وفيات الاعيان : ٢٩٨/١ ــ وشذرات الذهب ١٥٤/١
(٢) الاغانى : ٦٣/٧ دار الكتب

ضرورة التزام مقومات الشعر فى رأيها ، من عمق المعاناة ، وعاطفية التناول ، وصدق الوجدان ، والسمو بالشعر الى أفقه الجمالى ، بعيدا عن « الماء ، والنوم ، وأم عمرو » !

***

ولسنا بحيث نؤاخذها على جزئية أحكامها ، واتجاهها بالنقد الى اعتبار البيت أو الأبيات مناط حكم على الشاعر ، فلم يكن عصرها ينظر فى القصيدة من حيث هى وحدة متكاملة .

وليس يفوتنا هنا أن نلحظ أن « سكينة » فيما نقل الينا من ملاحظها النقدية — لم تتعرض قط لشعر المدح ، فهل تراها أسقطته من حسابها لما تعلم من كثرة الزيف فيه وغلبة النفاق عليه ؟ ..

ليس هذا عندنا ببعيد ، وقد كان من بين الذين تعرضت لنقد شعرهم ، جرير ، والفرزدق ، ونصيب ، وكثير ، ولهم فى المدح قصائد مشهورات ، ولم نرها مع ذلك روت لأحدهم بيتا من مدائحه أو ناقشته فيه ، وانما كان اهتمامها كله بما قالوا فى الحب ، وكأنها كانت ترى فيه ما لا ترى فى المدح ، من نبض القلب وحس الوجدان ، وتعده المقياس الدقيق لامتحان اصالة الشاعرية وصدق المعاناة ..

المشهد الأخير

امتد العمر بالسيدة سكينة حتى شارفت العقد الثامن من حياتها ..

وليس فيما لدينا من أخبار ومرويات ، ما يشير الى مرض ألمّ بها قبيل الموت أو يتحدث عن حالها فى أخريات أيامها ، وانما اقتصر الخبر على ما كان من أمرها فيما بين وفاتها الى أن دفن جسدها فى ثرى «طيبة» مدينة جدها الرسول

وهذا الذى كان ، هو المشهد الأخير من حياتها الحافلة ، وقد أشار اليه أكثر الذين أرخوا لسيرتها ، منهم « ابن خلكان » فى « الوفيات » و « ابن العماد » فى « الشذرات » . ولكن صاحب الأغانى هو الذى أورده مفصلا ، قال رواية عن جماعة من شيوخ بنى هاشم :

« انه لم يُصلَّ على أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير امام ، الا على سكينة بنت الحسين رضى الله عنه . فانها ماتت وعلى المدينة خالد بن عبد الملك ، فأرسلوا اليه فآذنوه بالجنازة وذلك فى أول النهار فى حرّ شديد ، فأرسل اليهم : لا تحدثوا حدثا حتى أجىء فأصلى عليها . فوُضع النعش فى موضع المصلّى على الجنائز ، وجلسوا ينتظرونه حتى صار الظهر ، فأرسلوا اليه فقال : لا تحدثوا فيها شيئا حتى أجىء . فجاءت العصر ثم لم يزالوا ينتظرونه حتى صُلّيت العشاء ، كل ذلك وهم يرسلون اليه فلا يأذن لهم ، حتى حانت العتمة ولم يجىء ، ومكث الناس جلوسا حتى غلبهم النوم ، فقاموا فأقبلوا يصلون عليها جمعا جمعا وينصرفون ، فأمر على بن الحسين رضى الله عنه من جاءه بطيب — قيل وانما أراد خالد بن عبد الملك فيما ظن قوم أن تنتن — فأُتِى بالمجامر فوضعت حول النعش ، ونهض محمد بن عبد الله العثمانى ، فأعطى عطّارا

كان يعرف عنده عودا فاشتراه منه بأربعمائة دينار . ثم أوقد حول السرير حتى أصبح وقد فرغ منه . فلما صليت الصبح ، أرسل خالد اليهم أن صلوا عليها وادفنوها » (١)

وكأنما أراد القدر ألا تمضى الهاشمية الحسناء عن الدنيا ، دون مشهد ختامى مثير ، لقصتها الحافلة !

***

ولكن متى توفيت « سكينة » على وجه التحديد ؟ ..

هنا نعود فنضرب فى تيه من تناقض الأخبار وتعارض المرويات ..

فالمشهد الذى نقلناه ، فيه نص على أنها توفيت ، وخالد بن عبد الملك ابن الحارث وال على المدينة ، وان أخاها زين العابدين «على بن الحسين» قد شهد وفاتها ، وكان هو الذى أشرف على تجهيزها لمثواها الأخير ..

والامام زين العابدين قد توفى بالمدينة فى العشر الأخيرة من القرن الأول ، ومدى الخلاف فى سنة وفاته ، لا يتجاوز ما بين عامى ٩٣ هـ ، و ٩٤ هـ . وابن خلكان قد اختار سنة ٩٤ ، وكذلك ابن العماد الحنبلى (٢) وان يكن الأول قد أضاف :

« وقيل توفى سنة ٩٣ هـ » (٣)

والذى فى (نسب قريش) انه توفى سنة ٩٤ هـ (٤)

وانفرد الشيخ الشعرانى — فيما قرأت — بالقول بوفاة الامام زين العابدين سنة ٩٩ هـ (٥) ، وهو ما نرفضه ، لسبب نذكره ان شاء الله عن قريب ..

فلو صح ان الامام شهد وفاة أخته سكينة — على رواية الأغانى — لكان مقتضى هذا ، انها توفيت قبل سنة ٩٤ هـ ، اذا أخذنا بأقصى الأجلين ..

---

(١) الاغانى : ١٤/١٧٠ ساسى
(٢) شذرات الذهب : ١/١٠٥
(٣) وفيات الاعيان : ١/٤٩٥
(٤) نسب قريش : ٥٨
(٥) طبقات الاولياء : ١/٢٧

لكن خالد بن عبد الملك ، قد كان واليا على المدينة سنة ١١٧ هـ ..
وقد عزله عنها هشام سنة ١١٨ هـ ، كما فى (تاريخ الطبرى) ..

وفيه كذلك ، ان سكينة توفيت سنة ١١٧ هـ ، قال فى حوادث سنة ١١٧ هـ : « وحج بالناس فى هذه السنة ، خالد بن عبد الملك ، وكان العامل فيها على المدينة ... وفيها توفيت سكينة ابنة الحسين بن على » (١)

وابن خلكان ، ذكر وفاة السيدة سكينة فى هذا التاريخ — ١١٧ هـ — دون أن يشير الى أى خلاف فيه ..

ومثله فى (شذرات الذهب) و (مقتل الحسين : ٣٦٨)

وهو التاريخ الذى اعتمدته دائرة المعارف فقالت فى مادة سكينة :
« ... توفيت بالمدينة فى يوم الثلاثاء من شهر ربيع الاول عام ١١٧ هـ »

فكيف شهد زين العابدين وفاتها ، ولا خلاف فى أنه لم يدرك القرن الثانى ؟

والفرق بين تاريخ وفاته ، وتاريخ وفاة السيدة سكينة ، يبلغ ثلاثة وعشرين عاما اذا أخذنا بالقول الراجح فى وفاته ، وقد يصل الى ربع قرن ، على قول من قال بوفاته سنة ٩٢ هـ !

وهو مدى طويل ، كان يجب أن يثير الاهتمام ، لكنا لا نعجب لمروره هكذا فى ساطة ، وبغير محاولة للنظر فيه

وذلك اننا نعرف من اضطراب التواريخ فى تراجم أعلامنا ، ما لا موضع معه للعجب هنا

ولن آتى بمثل بعيدة ، لما وصل اليه الخلاف فى مواقف مشهودة ، ومع أشخاص ذوى خطر فى التاريخ الاسلامى ، وانما أكتفى هنا بايراد مثل واحد ، هو أقرب الأمثلة لما نحن فيه : فالشيخ الشعرانى يقول بوفاة زين العابدين سنة ٩٩ هـ ، عن ٥٨ عاما (٢) أى أنه ولد سنة ٤١ هـ

وفى الصفحة نفسها ، بل فى الفقرة التالية ، يقول بوفاة « الامام محمد

(١) تاريخ الطبرى : ٢٢٨/٨
(٢) طبقات الاولياء : ٢٧/١

الباقر بن زين العابدين ، عام ١١٧ هـ عن ٧٣ عاما »

أى أنه ولد سنة ٤٤ هـ

ولم يكلف الشيخ الشعرانى خاطره ، بأن يفسر لنا كيف أنجب الامام زين العابدين ، وهو فى الثالثة من عمره ، ابنه محمد الباقر !

ولو قال انها احدى كرامات الامام زين العابدين ، لتركناها له ، واسترحنا !

لكن ، حتى هذه لم يقلها !

ومر بالأمر وكان ليس فيه ما يلفت أو يدعو الى اهتمام ..

***

ونعود الى موضوعنا ، فلا نرى حتما علينا أن نقف طويلا لنحقق مسألة شهود زين العابدين موت أخته سكينة ، فمن الواضح عندنا أن ورود اسمه رضى الله عنه ، فى حادثة مشهدها ، خطأ ، لا ندرى أهو من الراوى الأول للخبر ، أم من الناقل ، أم من الناسخ !

وأطمئن بعد هذا ، الى ما اتفق عليه الطبرى ، وابن خلكان ، وكتب الشيعة ، من وفاة السيدة سكينة سنة ١١٧ هـ ، بمدينة جدها الرسول ، وخالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم ، عامل على المدينة ، لهشام بن عبد الملك بن مروان ..

واستقر بها المطاف آخر الأمر فى ثرى « طيبة » مدينة جدها الرسول عليه الصلاة والسلام ، تاركة من بعدها كلمة الحق فى كل ما يقال فيها أو يروى عنها ، أمانة صعبة فى حافظة الزمن الواعية ، وضمير التاريخ المصنف الأمين

مصادر ومراجع

١ — المصعب بن عبد الله الزبيرى : نسب قريش — ط الذخائر
٢ — على بن سعيد بن حزم : جمهرة أنساب العرب — الذخائر
٣ — الطبرى : تاريخ الامم والملوك — ط مصر
٤ — ابن الاثير : تاريخ الكامل
٥ — أبو الفرج الاصبهانى : مقاتل الطالبيين — ط الحلبى ١٩٤٩
٦ — أبو الفرج الاصبهانى : الاغانى — ط دار الكتب والساسى
٧ — مقاتل الطالبيين ط الحلبى ١٩٤٩
٨ — أبو على القالى : الامالى — سمط اللآلى : ط لجنة التأليف
٩ — ابن خلكان : وفيات الاعيان — ط بولاق
١٠ — ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب — ط نهضة مصر
١١ — ابن قتيبة : عيون الاخبار — ط — دار الكتب
١٢ — ابن كثير : البداية والنهاية هامش تاريخ الكامل
١٣ — ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب — ط القدسى
١٤ — الشيخ راضى آل ياسين : صلح الحسن — ط الزهراء ببغداد ١٩٥٣
١٥ — السيد عبد الرزاق الموسوى : مقتل الحسين — ط النجف ١٣٧٦
١٦ — السيد توفيق الفكيكى : السيدة سكينة — ط العراق
١٧ — العبيدلى النسابة : السيدة زينب واخبار الزينبات
١٨ — عبد الوهاب الشعرانى : طبقات الاولياء
١٩ — المبرد : الكامل بغية الآمل من كتاب الكامل
٢٠ — ديوان عمر بن أبى ربيعة
— الدكتور طه حسين · حديث الاربعاء — ط أولى
— الاستاذ عبد الله العلايلى : أشعة من حياة الحسين
— الدكتور زكى مبارك : حب ابن أبى ربيعة وشعره — ط أولى
— دائرة المعارف الاسلامية : مادة سكينة

فهرس

صفحة

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال